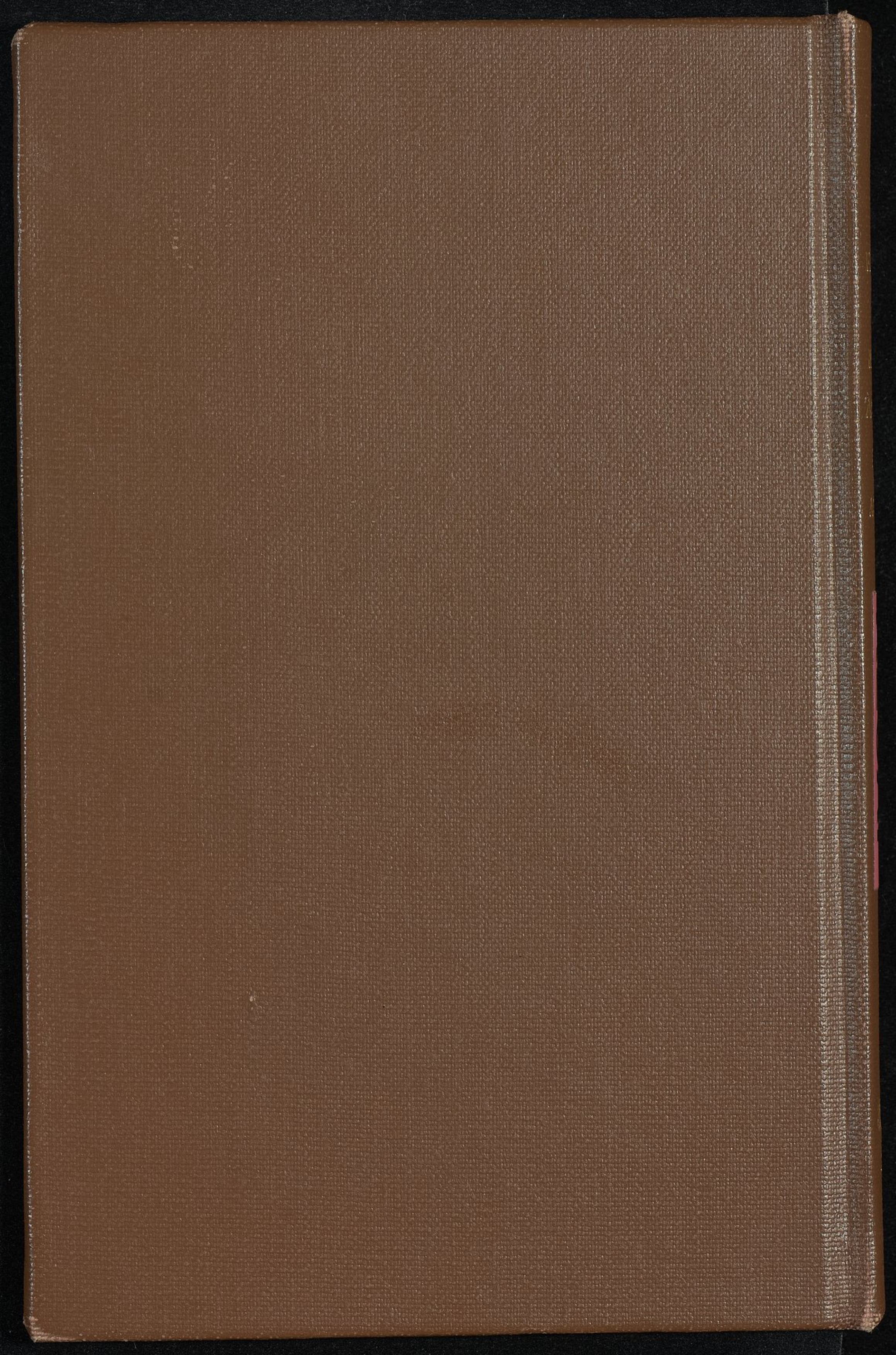
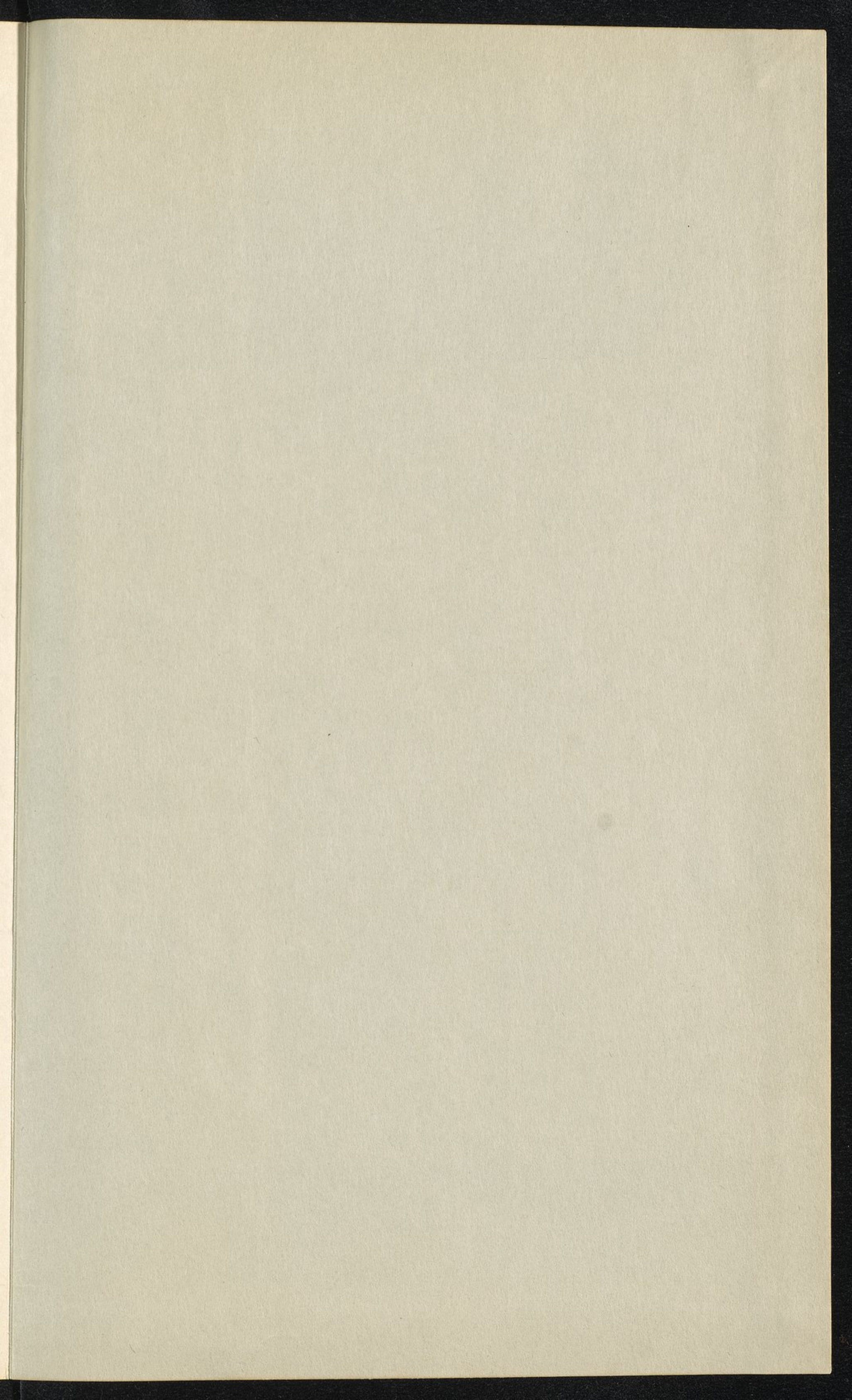
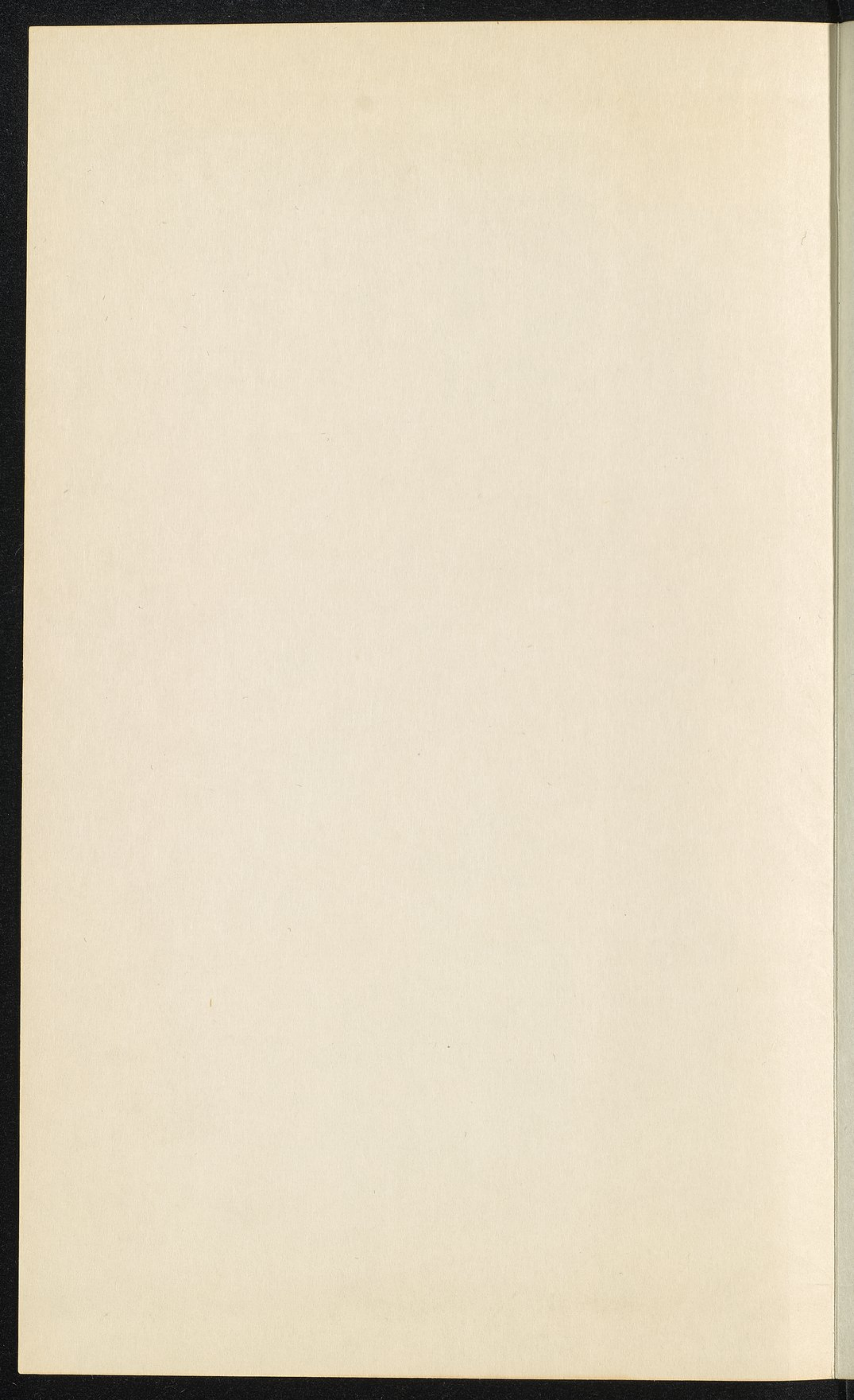
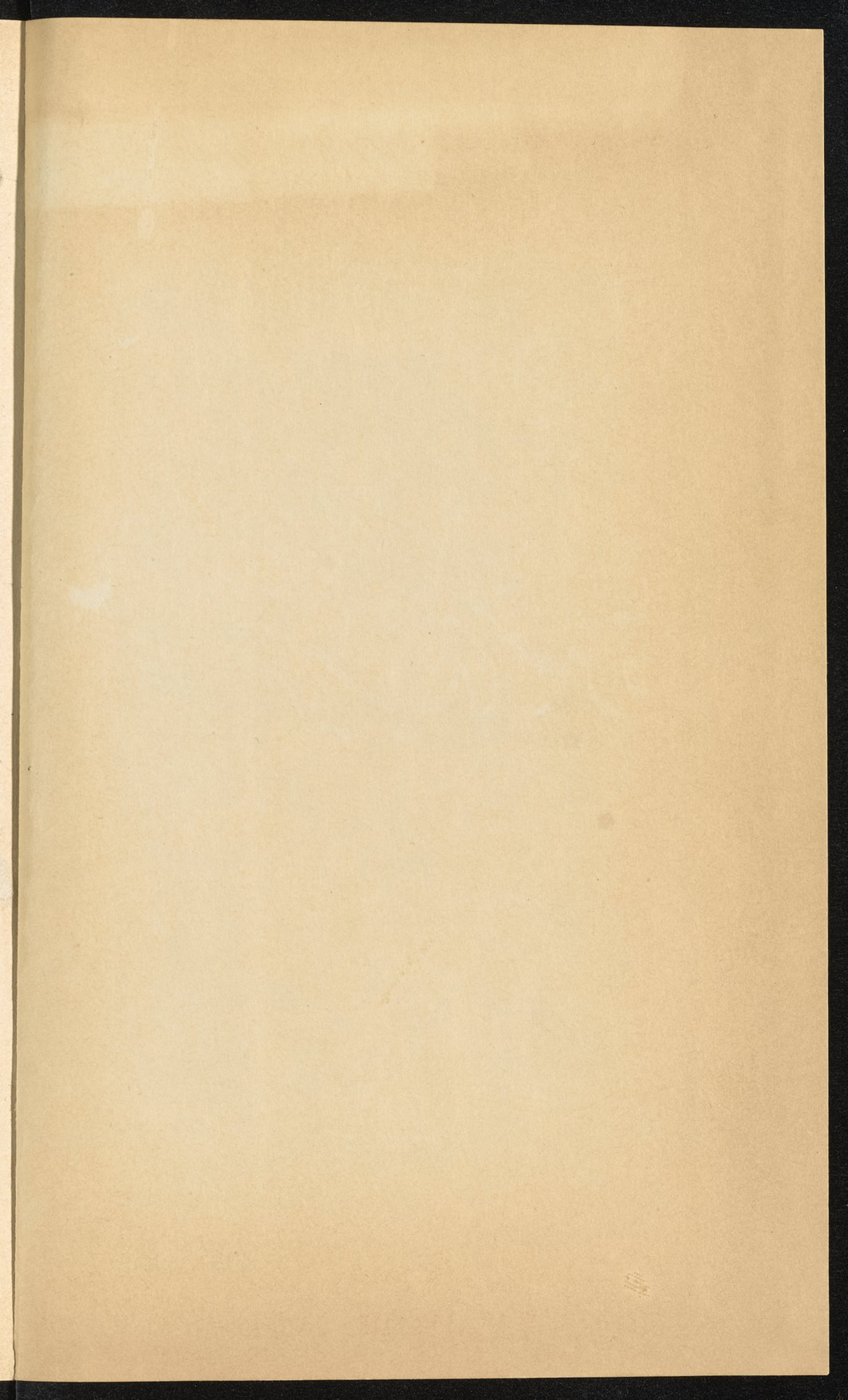








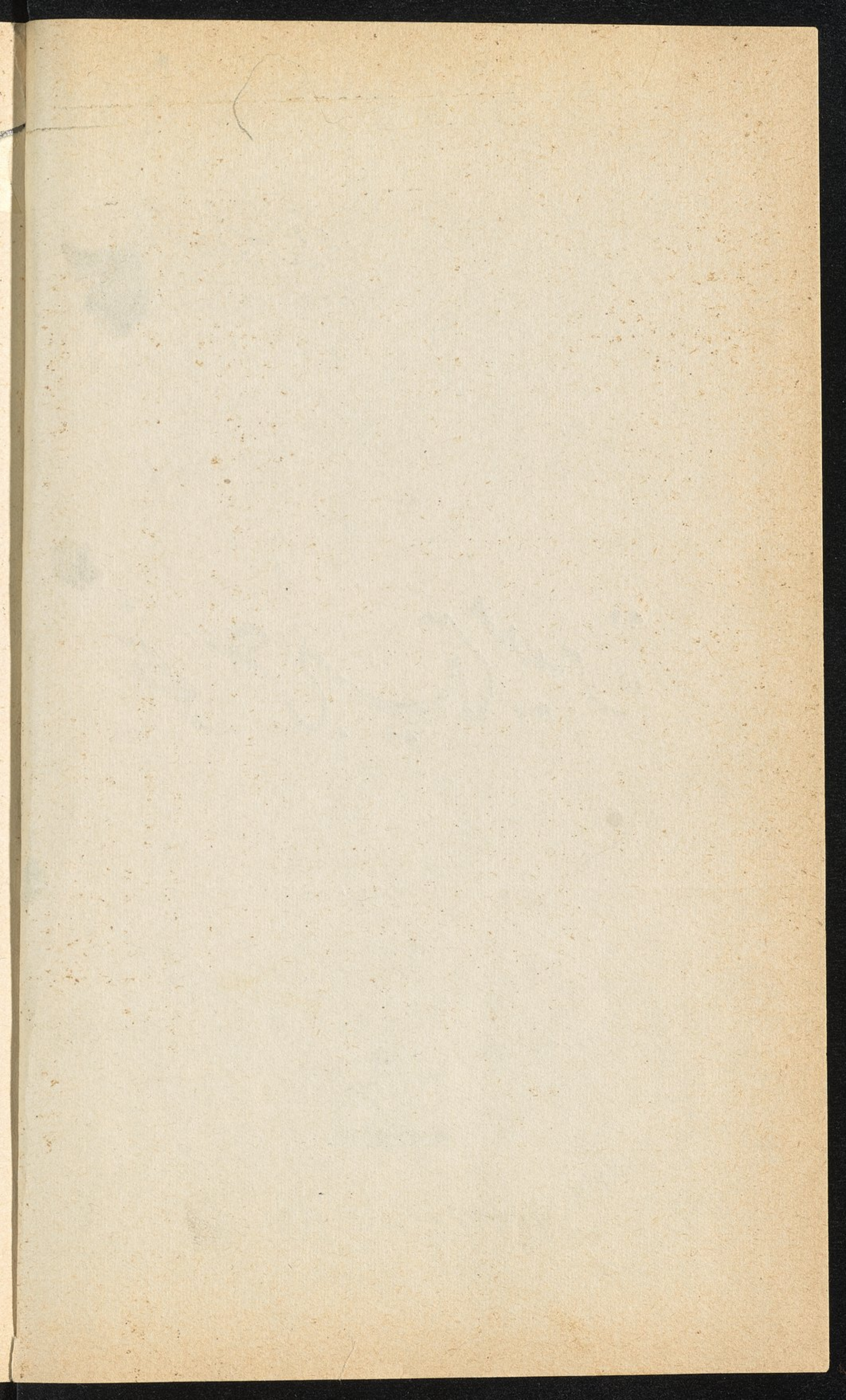
الدكتور انيس فريحه

أ ... ات السامية في جامعة بيروت الاميركية

نحو عربية ميسرة



دار الثقافة ببيروت

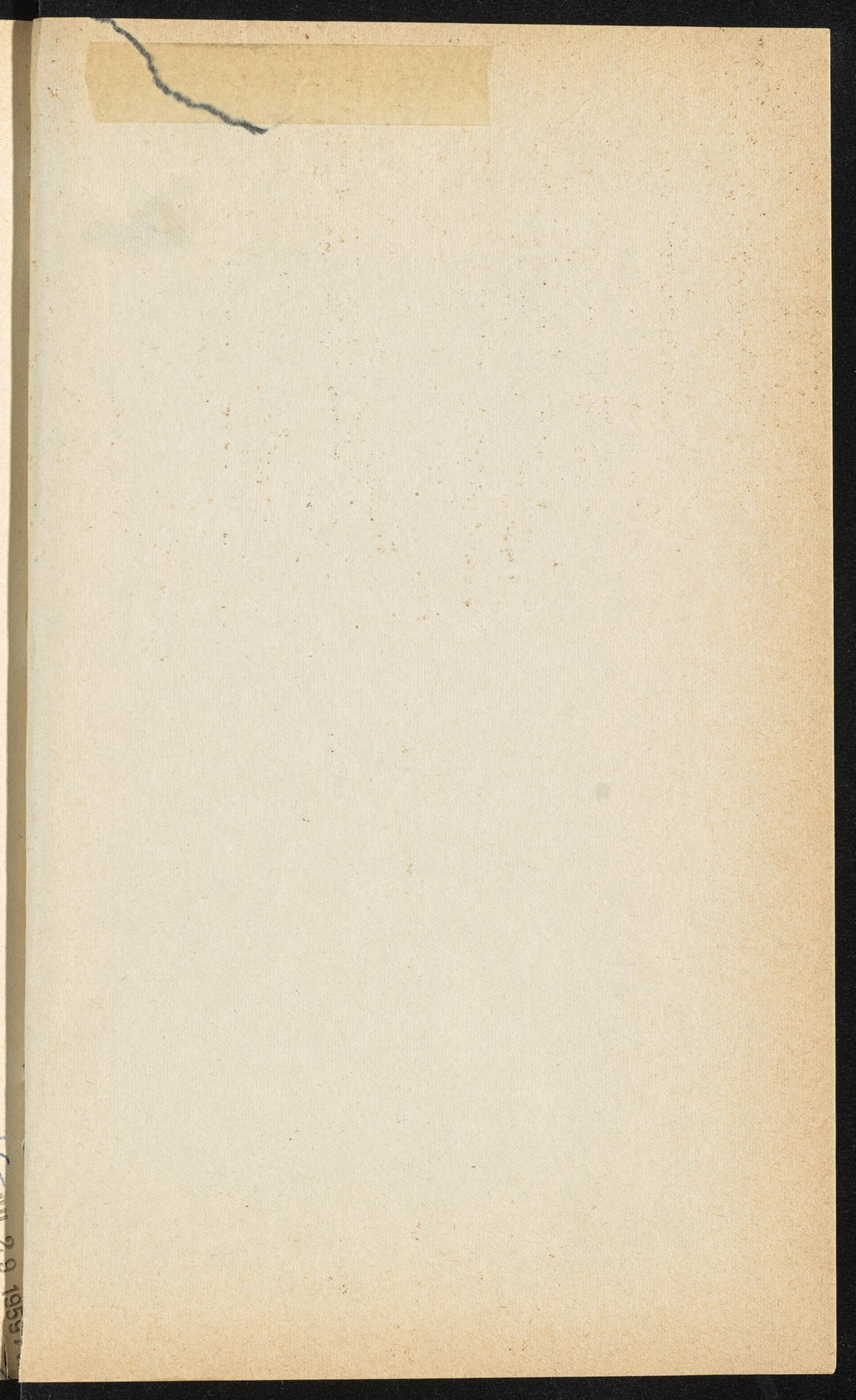


لا يصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة ما لم يعامله
الف صديق له كانه زنديق

(الجنيد)

الجزء الاوّل

في اللغة



مقدّمة

ان الغرض من هذه الدراسة القصيرة اثارة مشكلة اللغة على صعيد الفكر ، لان تفكيرنا في اللغة لا يخرج عن نطاق العاطفة . ومشكلتنا اللغوية خطيرة، فانها تتناول اهم نواحي الحياة. وقد آثرنا مخاطبة الجمهور - لان اللغة للجمهور - ولذا توخينا البساطة والايجاز وتحاشينا الدخول في التفصيل واقتصرنا على ذكر ما يقره العلم .

وقد قسمنا البحث الى ثلاثة اجزاء . يتناول الجزء الاول اللغة عامة واسلوب درسها درسا علميا حديثا (Linguistics) وقد حاولنا في هذا الجزء ان نعيد النظر في تحديد اللغة ، وان نذكر شيئا عن علم اللغة وعن اثره في تغيير وجهة نظر الناس الى اللغة . ويعنى الجزء الثاني ببحث نشأة اللهجة الادبية والمحكية والصراع الذي ينشأ بينهما، وكيف ترتقي لهجة محكية الى مصاف اللغة الادبية بوساطة «سلطة» . ولقد اسعدني الحظ ان يطلب الي القاء محاضرات في معهد الدراسات العربية في القاهرة في اللهجة

واسلوب درسها . وقد تضمنت هذه المحاضرات جزءاً من هذا القسم . وقد طبعت ، بعد تعديل وشيء من التشذيب، على حدة في كراس عنوانه « اللهجات واسلوب دراستها » ويعنى الجزء الثالث بحل المشكلة وما يترتب على الحل من مشاكل فكرية ودينية .

ولسنا في دراستنا القضية اللغوية نتكلم بلسان مدرسة فكرية ، ولا نعبر عن رأي مؤسسة كائنة ما كانت ، انما تمثل هذه الدراسة وجهة نظر المؤلف واقتناعه الشخصي . ويتحمل المؤلف وحده مسؤولية ما جاء فيها من آراء ومقترحات تخالف ما عليه الجمهور .

انيس فريحة

بيروت في ١ نيسان سنة ١٩٥٥ الجامعة الاميركية في بيروت

نظرة في نشأة العربية الفصحى

من النواحي المجهولة في تاريخ اللغة العربية نشأتها الاولى . فاننا لا نعرف عنها شيئاً يقينياً . ولكن لا يكاد القرن السابع ميلادي ينتصف حتى يجد مؤرخ اللغة نفسه امام لغة غنية بمفرداتها ، تامة في اعرابها ، متينة في تراكيبها ، صقيلة في اساليبها التعبيرية ، ناضجة في الصور التجريدية مما يدل علي مبلغ من الرقي العقلي يتنافى والصورة المشوهة التي صور بها المؤرخون التابعون اعراب البادية .

تنتمي هذه اللغة الفتية بمدونها الى الشعبة الجنوبية من اللغات السامية . وهذه الشعبة الجنوبية تضم لهجات الحبشة واليمن والجزيرة العربية . واذا اعتبرنا هذه اللهجات وحدة فان العربية الفصحى ، مدار دراستنا ، تشكل الفرع الشمالي لهذه اللهجات . وليس لنا ان نستطرد في الكلام عن اوجه الخلاف بين العربية الشمالية (العربية الفصحى) وبين لهجات اليمن ، فان ذلك من اختصاص علماء اللغة بالمقابلة . انما نريد أن نؤكد ان العربية الفصحى لغة مغايرة للغة العربية الجنوبية . وقد فطن الى هذا الخلاف قدامى اللغويين ، فكان ابو عمرو بن العلاء يقول : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا .»

تعرف العربية الفصحى بلغة عدنان مقابلةلها بلغة قحطان. وتعرف

كذلك بلغة مضر . ويفضل المتأخرون تسميتها بلغة قريش او لغة مكة.
وعندنا ان هذه التسمية الاخيرة ليست دقيقة . ذلك لان الدور الذي
لعبته قريش او مكة في تكوين هذه اللغة قبل الاسلام ثانوي لا يؤبه به ،
بدليل ان الشعر الذي اعتمده الصرفيون والنحويون عند استنباط قواعد
اللغةواحكامها ـ واكثر ما اعتمدوه الشعر الجاهلي ـ كان شعرا نجدياً
حجازياً . ولا ينكر اللغويون القدامى ان جل ما اخذوه كان عن
الاعراب لا عن اهل المدن ، وتحقيقاً عن قيس وتميم واسد . غير ان نسبة
الفصحى الى قريش ومكة اسلامية ، وذلك لما اكتسبته قريش ومكة من
مكانة دينية سياسية سامية . ومهما يكن من امر هذه الاسماء التي عرفت
وتعرف به هذه اللغة ـ عدنانية ، مضرية ، قرشية مكية ، نجدية ـ حجازية
ـ فان دلالتها واحدة ، هي هذه اللغة التي تحدرت الينا والتي نعرفها نحن
بالعربية الفصحى مقابلة لها بالعربية المحكية العامية ، والتي هي محور
هذه الدراسة .

تاريخ هذه اللغة يثير مشاكل لغوية تاريخية عديدة . أين نشأت ؟
هل كانت لغة تخاطب ، واي قوم كانوا يتخاطبون بها ؟ ام كانت لغة
الشعر والادب والدين؟ ماذا نعرف عنها قبل ان دون بها القرآن الكريم
وقبل ان تجمع النتف الباقية من ادب الجاهليين؟ هل يعقل ان تكون
وليدة ليلة وضحاها ام وراءها تاريخ مديد غامض ؟ اسئلة تصعب
الاجابة عنها اجابة علمية دقيقة لندرة المصادر والوثائق السابقة لعصر

التدوين . فلا يبقى لدى المؤرخ الا ان يعتمد اللغة كما تحدرت الينا منذ القرن السابع ميلادي .

ولكن لا يصح اعتماد اللغة كما تحدرت الينا مدونة مصـــدراً لدراسة اللغة في عهودها السابقة . ذلك لان الذين استنبطوا قواعدها ، وضبطوا احكامها اعتمدوا الشعر الجاهلي اولا ثم القرآن الكريم مادة لغوية ، ومتى كان الشعر ولغة الادب والدين مرآة تعكس لغة الناس في معايشهم ومكاسبهم ؟ الشعر صناعة والادب خلق فني . اما لغة الناس فنتيجة تطور طبيعي بعيد عن الصنعة والزخرف . وكذلك لايصح اعتماد المادة اللغوية التي عثر عليها على الحجارة والانصبة في الحجاز وفي شمالي الجزيرة العربية واطرافها مما يلي بلاد الآراميين . فانها لغة على كثير من الركاكة والرطانة والعجمة ، حتى ان استاذنا الالماني ، انو لتمان ، الذي حل رموز النقوش الثمودية والصفوية كان يشعر انها ليست عربية . ولم نشعر نحن ، طلبته الذين درسنا هذه النقوش عليه ، انهـا عربية . وان كنت في شك من ذلـك فما عليـك الا ان تقرأ النقش الذي وجد في النمارة ، وهي قصر للروم من اعمـال حوران ، ويعرف بنقش امرىء القيس احد ملوك الحيرة . فانك ستجد لنفسك انه لا يمكن ان تكون لغة هذه النقوش ذات صلة بلغتنـا العربية الفصحى كما نعهدها في الشعر الجاهلي والنثر القرآني · ومن هنا كانت احجية اللغة العربية الفصحى المعربة ! لغة هذا مبلغ رقيها لا تترك لنا اثراً اديبا جاهليـا ننفذ منه الى

أغوار الماضي البعيد .

وعليه سنترك الناحية التاريخية جانبا الى ان تتوفر الوثائق الكتابية السابقة لعصر التدوين، والى ان تدرس اللهجات العربية التي اشار اليها اللغويون والتي ابقت المصادر العربيةنتفا منها (كما فعل الجاحظ مثلا.) وسنحصر همنا بدرس المشكلة اللغوية من نواحيها الاجتماعية الفكرية التربوية . ولكن يحسن بنا قبل الاسترسال في البحث ان نأتي على ذكر بعض ما امتازت به العربية من صفات اهلتها ان تكون لغة علم وفلسفة الى جانب كونها لغة دين وشعر. وهي ليست صفات ملازمة للعربية بل هي مميزات لغوية عامة تتصف بها اكثر اللغات الراقية .

(١) الذخيرة اللغوية :

الذخيرة اللغوية العربية تفوق بغناها اية لغة سامية اخرى . ولا اسراف في القول ان معجم العربية من اضخم المعاجم. وان المرء ليقف معجبا حائراً امام هذا البحر من الالفاظ ، وهذا الغنى في المترادفات والاوصاف ، حتى ان بعضهم يرى في هذه الظاهرةموضع فخر ومباهاة. فلكل ساعة من ساعات النهار اسم ولكل ليلة من ليالي القمر اسم ، وللسنة ٢٤ اسما وللظلام ٥٢ اسما ، وللسحاب ٥٠ اسما ، وللمطر ٦٤ وللماء ١٧٠ وللناقة ٢٥٥ وللسيف اسماء لا يحضرني عددها ، وللداهية من الاسماء ُتعد بالمئات حتى قيل ان اسماء الدواهي من الدواهي ، وقد

احصى هامر (١) المفردات التي لها علاقة بالجمل فبلغت ٥٧٤٤ لفظة ، ولك ان تضيف الى هذه اذا كان لديك من الوقت ماتتلهى به في التقصي ومراجعة المعجم العربي . ونحن نعلم ان هذه المترادفات هي اوصاف ومجازات ولكن رغم هذا كله فاننا نستطيع ان نقول ان العربية غنية جداً بمفرداتها .

ولكن تجدر بنا الاشارة اولا الى ان الجمع تناول لغات عربية كثيرة ، وكان الحماس للجمع بالغا مبلغه فاقحموا هذه الكثرة دون روية في التحقيق . وليس في قولنا هذا ما يقلل من احترامنا لاولئك العلماء الافذاذ . ولكن عمل المعاجم لا يتم بالطريقة الفردية . غير ان من يعرف « لسان العرب » او « التاج » او « القاموس » لا يستطيع الا ان يرفع قبعته اجلالا لجامعيها . ونلاحظ ثانيا ان الكثرة الكثيرة من هذه الكلمات تعكس الحياة الصحراوية البدائية وهذا طبيعي . وكان على هذه اللغة الصحراوية الفقيرة بالمفردات التجريدية الفلسفية والعلمية والفنية والصناعية نسبيا ان تلين لتطور الحياة العربية العقلية . وقد نجحت في هذا نجاحا جزئيا . ونلاحظ ثالثا ان هذه الكثرة من المفردات اللصيقة بالحياة البدوية اصبحت على ممر العصور مماتة . اماتتها الحياة ونبذتها ، لان الحياة العربية ابتعدت عن الصحراء وما اليها من بداوة .

---

(1) De Hammer : Das Kamel extrait des mem. de l'Academie de Vienne, Classe de Phil. et d'histoire t. VII.

(ب) التصعيد :

ونريد بهذا المصطلح قدرة اللغة على التجريد ، اي تجريد الصورة المادية ونقلها الى صعيد معنوي، بكلام آخر الصعود باللفظة من معناها الحسي الي المعنوي. وهذه صفة تتصف بها كل لغة حية راقية .ولا تقل العربية عن سائر اللغات قابلية في التصعيد . فمن منا اليوم يقرن لفظة « العقل » بحبل الشعر الذي كانت تربط به رجل الجمل ؟ ومن منا يقرن «المجد» بامتلاء بطن الدابة ، « والنفس » بعملية التنفس « والروح » بالريح والهواء ؟ كل المعاني في طورها الاول كانت حسية ملموسة، وبتقدم الحياة والفكر من جهة، وقلة المفردات من جهة ثانية، وجد الانسان نفسه مضطراً لاستعمال مفردات قديمة لمعان جديدة على طريقة التجوز والتوسع .

(ج) الاشتقاق :

وكان يجب وضع هذه الخاصة في رأس قائمة الصفات المميزة للعربية فانها صفة تغني اللغة كثيراً .

تُرَدُّ الكلمات في جميع اللغات السامية الي جذور ثلاثية (١) نفترضها افتراضا ، بمعنى اننا لا نعرف كيف كانوا ينطقون هذا الجذر ، ولا نعلم علم اليقين كيف استعملوه : اسما ام فعلا ام صفة . وعلي هذا

---

(١) نحن نعرف اللغات السامية في طورها الثلاثي ، وهو الطور الحالي . ولكن هذا لايعني انها لم تمر سابقا في طور ثنائي ، والقائلون بالثنائية كثيرون والادلة متوفرة .

الجذر، الذي يشبه جذع شجرة، تقوم اغصان تتفرع الى فروع، والفروع الى فروع فتنشأ منه شجرة نامية وارفة الظلال . وقد قدر احدهم امكانات الاشتقاق باكثر من ١٢٠ وزنا ، اي اننا نستطيع « مبدئيا » ان نشتق من جذر « علم » اكثر من ١٢٠ وزناً لمعان مختلفة .

(د) التوليد

وهو شبيه بالتصعيد . ويكون على نوعين : صوغ كلمات جديدة لا عهد للعربية بها من قبل كاللامركزية والماهية والحيثية ، او اسباغ معنى جديد على كلمة قديمة لم توضع لهذا المعنى ، مثل القاطرة والمحرّك والجريدة والهاتف . وقد اظهرت العربية قابلية فائقة للتوليد ، ولم يتردد علماء العرب وفلاسفتهم في توليد الالفاظ رغم معارضة بعض الرجعيين القائلين بالاكتفاء «بعصور الاحتجاج » وهذه خاصة تغني اللغة وتساعد على تطورها ونموها لتعبر عن الحياة المتطورة .

(هـ) التعريب :

وكانوا يقصدون به نطق كلمة اجنبية على نهج العربية واوزانها . وقد أظهرت العربية والعرب رحابة صدر لاقتباس المفردات الدالة على نواحي الحضارة التي اصبحوا ورثتها وبناتها. ولم تستنكف العربية يوما ، ابان سطوتها ، عن ان تقبل بالمعرب والدخيل . وهو اقرار ضمني بان لا معدى للغات الناشئة عن الاقتباس ، ولا يضير اللغة ان

يدخل في عداد مفرداتها كلمات اجنبية. فان اللغات التي اصبحت لغات حضارات اخذت واعطت. وها ان العربية اعطت الفارسية والتركية وسائر اللغات الاخرى اكثر مما اخذت عنها.

(و) القياس :

وهذا مبدأ شريف تأخذ به العربية وجل العرب. يقوم هذا المبدأ على فلسفة لغوية اجتماعية: «ما قيس علي كلام العرب فهو من كلام العرب.» وهو علي نقيض مبدأ السماع الذي يقيد اخذ اللغة بالرواية والسماع. ومبدأ الاخذ بالقياس ثورة علي القائلين بصفاء اللغة وصحتها وبلاغتها في عصر معين او في جيل من الناس معين. ولا مبرر علمي لهذه الدعوة. فان الحس اللغوي والبلاغة في التعبير لا تقتصر علي عصر او جيل.

ان هذه الصفات التي تتصف بها العربية : غنى في المفردات، وقدرة علي التصعيد والتوليد، وامكانات في الاشتقاق عديدة، ومبدأ القياس والتعريب، دفعت بها الي تبوؤ مكانة مرموقة في العصور المتوسطة. ولكن الي جانب هذه العوامل البناءة نلحظ عوامل اخرى تعوق اللغة عن مماشاة الزمن. فها قد مرّ علي الحياة العربية ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ولغتهم لم يطرأ عليها تغيير ما ولا تبديل ما. عربية اليوم هي عربية امرىء القيس وجرير وناصيف اليازجي. ان الحياة تسير سيرها الحثيث، والعربية اليوم في حالتها الحاضرة تحاول ان تماشي الزمن،

ولكن سيرها بطيء . ولن نستطيع ايقاف الزمن . فان سرعة التقـــدم عظيمة ، ويخشى ان تتسكع العربية في المؤخرة. وهذا هو جوهر المشكلة اللغوية، موضوع هذه الدراسة : زمن سريع التقدم ولغة مكبلة . ما هي هذه المشكلة اللغوية ؟



المشكلة اللغوية

مشكلتنا اللغوية مشكلة كل شعب مزدوج اللغة (bilingual) فاننا نفكر ونتكلم ونغني ونتمتم صلواتنا ونناغي اطفالنا ونهمس في آذان من نحبهم ونتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم ونتشاتم مع من يروق لنا ان نتشاتم معهم بلغة محكية سلسة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا جهدا . ولكن عندما نقف مواقف رسمية — كأن يكون احدنا معلما او واعظا او محاميا او محدثا في الاذاعة او محاضرا في قاعة الدرس- علينا ان نتلبس شخصية لغوية ثانية . علينا ان نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة ، معربة ، معقدة ، شديدة الاحكام في التركيب والتعبير . واللغة هي الفكر وطريق الانسان الى ادراك الكون والوجود . اذا فكرنا فاننا نفكر بوساطة اللغة، واذا ادركنا الامور فاننا ندركها بوساطة اللغة، واذا تصورنا الاشياء فاننا نتصورها بوساطة اللغة، واذا انتقلت الينا اختبارات الانسانية فانها تنتقل الينا بوساطة اللغة ، اذن اللغة عنصر من عناصر الحياة الانسانية ومع هذا — وهنا يقع التناقض — فان علينا ، في مواقفنا الرسمية ان نتكلم بلغة الاجيال الغابرة ، علينا ان نعبر عن

احاسيسنا ودواخلنا بلغة وقفت في مجراها عند نقطة معينـة في الزمان والمكان عندما احيطت بهالة من التقديس ، وعندما سيج حولها بسياج من الاحكام ، فوقفت في تطورها عند هذه النقطة في الزمان والمكان . ولكن اللغة لا تقف عند نقطة معينة في الزمان والمكان لان اللغـــة مجرى ، ونحن نأبى في مواقفنا الرسمية الا ان نعاكس المجرى ، اذ بهذه اللغة علينا ان نعبر عن الحياة الحاضرة . في مثل هذه الحال ، عوضا عن ان ينصرف الجهد العقلي الى الفكر ، ينصرف الى الشكل الذي نعبر فيه عن الفكر ـــ اي تصبح اللغة مخدومة لا خادمة .

ولا تظنن اننا الشعب الوحيد الذي مر في هـــذا الطور ، طور ازدواج اللغة ، فان هناك امما حية معاصرة وامما من الماضي البعيد مرت في هذا الطور وعانت ما نعانيه : الاغريق ، الرومـان ، الهنود ، وغيرهم كثير . ولكن الغلبة في هذا الصراع بين لغة الحياة ولغة الكتاب كانت ابداً للشعب . وستتجلى لك هذه الحقائق في الفصول اللاحقة . ولكن الفارق بيننا وبين هذه الشعوب المزدوجة اللسان ينحصر في امرين : اولا انهم حلوا المشكلة باعترافهم ان لغة الحياة هي اللغة الصحيحة الفصحى . واعترافهم هذا رفع اللهجة المحكية الى مرتبة اللغة الرسميـــة . ثانيا لم تكن مشاكلهم عويصة معقدة مرتبطة بقضـايا الدين والادب كما هي الحال عندنا . نحن نفوقهم في المشاكل عددا وتعقيدا ، ويفوقوننا عزمـاً

وارادة .

تنحصر مشاكل اللغة العربية الاساسية في اربعة امور :

(ا) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى

(ب) تقييد الفصحى باحكام شديدة

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة « الحركات »

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلم والفنون

وقد يضاف اليها مشكلة تدريس العربيـة بالاساليب التي كانت متبعة في مدارس الكوفة والبصرة دون ان يطرأ عليها اي تعـديل جوهري . وقد عالجنا هذه القضية في مقالين موضوع الاول « تـدريس العربية من مشاكـل اللغة العربية[1] » ، وموضوع الثاني « البيـان والادب من مشاكل التدريس[2] . » وقد حاولنا ان نعزو انخفـاض مستوى العربية والنفرة من درسها الى هذه الاساليب التقليـدية الجافة البعيدة عن المنطق وعلم النفس . وقد اقترحنا حلا لمشكلة تعليم قواعد اللغة فجاء الحل في شكل كراس عنوناه « تبسيط قواعد العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد[3] » وقـد وزعناه على جماعة المعلمين

(١) نشرته مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت في الجزء الرابع من السنة الرابعة (١٩٥٠)

(٢) مجلة الابحاث الجزء الثالث من السنة الخامسة (ايلول ١٩٥٢)

(٣) طبع في جونية ، مطابع المرسلين اللبنانيين (١٩٥٢)

والادباء ، فأقرنا على رأينا جماعة وخالفنا الرأي جماعة أخرى . وفي دراساتنا هذه لن نتعرض لهذه المشكلة الاخيرة — مشكلة تدريس اللغة وقواعدها — بل سنقصر همنا الرئيسي على بحث المشكلة الاولى وما يترتب عليها من قضايا فكرية واجتماعية وتربوية .

وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى «١»

ظن لغويو الغرب — ويجاريهم في تفكيرهم المعاصرون — ان لغة العرب القدامى كانت العربية الفصحى كما نعهدها في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وفي القليل الذي وصلنا من النثر ، اي تامة الاعراب وعلى مناهج البلاغة والفصاحة التي نعهدها في المدوّن الادبي . ثم انه عندما خرج العرب من موطنهم الى مواطن الآرامية والفارسية والقبطية فقدوا « ملكة اللسان » كمايقول ابن خلدون وغيره ، واخذت مظاهر الركاكة والرطانة والعجمة تتسرب الى لسانهم فنشأت اللهجات. وسنرى فيما يلي ان اثر لغة في لغةاخرى من العوامل التي تعمل على نشوء التغاير والتباين في اللغة ، غير ان اسباب نشوء اللهجة تُردّ الى عوامل اخرى اهمها ان اللغة لا تثبت على حال ، فهي مجرى ، وكلما بعد المجرى ظهر التباين .

---

(١) سنثبت في فصل تال ان العامية لغة قائمة بذاتها تختلف عن الفصحى في نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي ، وهي اختلافات جوهرية تبرر اعتبارها لغة مغايرة للفصحى .

نحن نعلم ان الفصحى بعد ان اصبحت لغة الدين واللغة الرسمية للدولة الجديدة أخضِعت للقيود ، القيود التي يفرضها الصرفيون والنحويون . فهم يحرصون مخلصين على وضع نظام صرفي نحوي للغة حفاظا عليها من الفساد . والخطأ ان اللغة لا تقيد . والشاهد على صحة دعوانا هو ان العامية ، اي لسان العامة ، لم يخضع لهذه القوانين والاحكام فسار سيره الطبيعي بينما بقيت الفصحى على اساليبها لم يتغير فيها شيء ما ، ان من جهة الصرف او من جهة النحو[1] . فكان من الطبيعي ان تتسع الشقة بين اللغتين حتى اصبحتا في نظر علماء اللغة لغتين مختلفتين متغايرتين .

والنتائج المترتبة على هذه الازدواجية في اللغة بعيدة الاثر ، فاننا في حياتنا اليومية نتكلم لغة سلسة سيالة تتميز بفقدان الاعراب وبغنى في الحروف المصوتة التي تضفي على النطق بها مسحة تخالف النطق بالفصحى . وكذلك تتميز بمرونة في التركيب وبسهولة في التعبير. ولكن في حياتنا الرسمية — في التعلم وفي القراءة والكتابة وفي المواقف الرسمية — علينا ان نتلبس شخصية لغوية ثانية . ولا نشك في ان

---

(١) يظن بعض الناس خطأ ان عربيتنا الفصحى اليوم هي غير الفصحى لعهد الامويين . وهذا وهم فان العربية الفصحي التي نعلمها أبنائنا لا تختلف ،وهراوتركيبا عن عربية الامويين حتى والجاهليين. ولا اعتبار للمفردات فان المفردات تهرم وتموت ويقوم مقامها اخرى . جوهر اللغة التركيب وهذا لم يتبدل اطلاقا .

أزدواجية اللغة تعوق الفكر ولا سيما عند الاولاد فانهم يلقنون بلغة غير لغتهم ويقرأون في كتب لغتها مغايرة للغتهم . وهذه كتب التدريس عندنا شاهدة على صحة دعوانا ، وهؤلاء هم اطفالنا يعانون من تعلم الفصحى اكثر مما يعانونه من تعلم لغة اجنبية . في حالة كهذه يركد الفكر عوضا عن ان ينشط ، وهذه قضية تربوية على غاية من الخطورة .

(ب) تقييد الفصحى باحكام شديدة

واللغة لا تقيد ، غير ان منزلة العربية قضت ان يسيج حولها بسياج من الاحكام والقواعد الشديدة . وشأن العربية في هذا شأن كل لغة اخرى يحرص اهلوها على حفظها من التجزؤ والتفكك . ولكن ما يؤسف له حقاً ، من جهة التطور اللغوي ، ان يتمّ ضبط اللغة العربية في احكام مرهقة في زمن بلغ فيه نموُّها اشدّه ، وفي زمن قريب الى البداوة ، واكثر ما تكون اللغة اندفاعاً وحيوية ابان نموها وقربها من البداوة . ونحن لا نشك في انه لو دُوِّنت احكامها في اعصر تالية لما كانت اتصفت بهذه الشدة والقسوة في الأحكام. وقد تأثر قدامى اللغويين باصول المنطق الاغريقي، وخاصة بفلسفة ارسطو اللغوية . فانه ـ ارسطو ـ كان يرى ان للغته تركيبا خاصا ، وهذا التركيب هو المنطق السليم . فراح يضع للغته صرفا فلسفيا (Philosophical Grammar) مبنياً على العلة والمعلول ، والعامل والمعمول ، والتقدير والاضمار والافتراض ، وعزا

للكلمة اثرا سحريا في كلمة اخرى . وانت اذا درست فلسفة النحو العربي وجدت انه لا يخرج بجوهره عن فلسفة ارسطو في اللغة. فالتركيب هو المنطق السليم، ولكل علة معلول ، ولكل عامل معمول ، ناهيك عن التقدير والاضمار . وحاول لغويو العرب ان يوجدوا ناموسا عاماً لجميع المظاهر اللغوية. وحاولوا ان يجدوا منطقا للغة . ولكن ليس للغة منطق ، ولا تخضع اللغة لقاعدة عامة ، ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الاحكام ، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ مما فتح بابا للاجتهاد والتأويل ، واحيانا للخصومة العنيفة كما وقع لمدرستي الكوفة والبصرة[1] . ولا نزال الى يومنا هذا نؤلف كتبا لتيسير النحو وتقريبه الى افهام الناس ولا اظننا قد افلحنا . اعتبر عناوين كتب النحو : احياء النحو ، النحو الواضح، الشافي، الكافي، التقريب، التسهيل، والتوضيح وحاشية فلان على كتاب فلان . جاء في بيت للفرزدق في قصيدة من قصائده مخالفة نحوية احدثت مشكلة عند اهل اللغة :

وعض زمان يابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف (عوضا عن مجلفا) .

---

(١) احسن مثال على هذه الخصومة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لعبد الرحمن الانباري .

فسأله يوما ابن ابي اسحق : علام رفعت مجلف ؟ فقال علي مـــا يسوؤك وينوؤك. علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا » . وقد جاء في كتاب الشعر والشعراء (ص ٢٧٦) لابن قتيبة : « رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة واتعب اهل الاعراب في طلب الحيلة فقالوا واكثروا ولم يأتوا فيه بشيء يُرتضى . ومن ذا يخفى عليه من اهل النظر ان كل ما اتوا به احتيال وتمويه . » وجاء في نزهة الالباء في طبقات الادباء (ص٣٨٨) : « سأل يوما عضد الدولة فناخسرو البويهي الامام ابا علي الفارسي لماذا ينصب المستثنى في نحو قام القوم الا زيدا . فقال بتقدير استثني زيدا . فقال عضد الدولة : لم قدرت استثني ؟ هلا قدرت امتنع زيد فرفعت ؟ فلم يحر جوابا . » افتعجب بعد ان قيل لك ان الفراء مات وفي قلبه شيء من «حتى» وان سيبويه مات وهو يتمنى ان يلم بحد « التعجب » وان الكسائي مات وهو في غاية التبرم من « نعم وبئس » وان الخليل مات وهو في اشد الاستياء من باب « النداء » ؟ اما ابن خالويه فقد اتاه رجل يقول : « اريد ان اتعلم من العربية ما اقيم به لساني » فقال له ابن خالويه : انا اتعلم النحو منذ خمسين سنة فما تعلمت ماأقيم به لساني» .

تقييد اللغة باحكام مرهقة يوقف نمو اللغة . وهذه اللغة التي توقفها عن النمو قد تبقى في بطون الكتب والمعاجم ، ولكن لغة الناس تسير سيرها غير عابئة بالاحكام ، والشاهد على صحة هذا لغتنا العامية .

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة « Vowels »

فان العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتصرت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلا عظميا لا حياة له . وهذا يجعل عملية القراءة امرا عسيرا . اذ تفرض هـــذه الطريقة في الكتابة ـ كتابة الحروف الصامتة فقط ـ عــلى القارىء ان يفهم اولا ، كما قال قاسم امين ، ثم ان يقرأ قراءة صحيحة ثانيا . وهذا على نقيض الغاية من القراءة . فاننا الشعب الوحيد الذي يجب ان يفهم ليقرأ ، بينما جميـــع شعوب الارض تقرأ فتفهم . كان يقرأ ولد على استاذه نصاً خالياً من الحركات . فاتى على كلمــة « فستكون » فوقف التلميذ امام هذا الهيكل العظمي الميت حائراً لا يدري كيف ان يتلفظ به « Fstkwn » وبعد محاولات عدة قرأها « فِستكوِنْ » فكانت نكتة ضحكنا منها كثيراً . ولكن الطالب قرأ واحدة من الامكانيات التي تعد بالمئات . وان كنت في شك من ذلك سل مــدرساً في الرياضيات فانه يعطيــك القاعدة الرياضية !

وقد ادرك مجمع فؤاد الاول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والاقتصادية فوضع جائزة قـدرها الف جنيه مصري لمن يقدّم افضـل اقتراح ، او لمن يرسم افضل هجـا ء من شأنه تسهيل القراءة ، والمشكلة لا تزال قائمة .

لن نتعرض في دراستنا هذه لهذه المشكلة الخطيرة. غير اننا عالجناها في مقال نشرته مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت عنوانه «حروف الهجاء العربية، تطورها، ومشاكلها[2]» يحسن بالقارىء مطالعته. وتجدر بنا الاشارة ايضاً الى كتاب قيم يبحث المشكلة لعبد العزيز فهمي باشا وعنوانه «كتابة العربية بالحرف اللاتيني» ففيه توضيح للمشكلة وفيه ردود المؤلف على مهاجميه الكثر، من شأنها ان تنير القارىء الذي يرغب في ان يتعرف الى مشكلة الخط العربي عن كثب.

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون

وذلك لان معظم هذه التعابير الجديدة والمصطلحات المحددة معنى واستعمالا لم تك يوما من المعجم العربي، ولم تك من القضايا العلمية التي عني بها الفكر العربي. لان الفكر العربي لاسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة. فمن الطبيعي ان تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون. لغة كل شعب مرآة حياته وبيئته. فان لغة الاسكيمو الفقيرة بمفرداتها تصلح ان تكون اداة حسنة للتعبير عن حياة الاسكيمو وعن محيطه الجاف القاسي، ومن يطلب من لغة الاسكيمو، دون

---

(٢) مجلة الابحاث، العدد الاول من المجلد الخامس ص ١ - ٣٢ وقد طبع منه نسخ عديدة وزعت على من يهمهم الامر.

تعديل فيها ، ان تنقل حضارة الغرب اليوم بفكره وروحه وعلمه انما يطلب المستحيل . وكل من يعتقد ان العربية اليوم بحالتها الحاضرة ، وبالنسبة الى تزمت بعض الناطقين بها ، تستطيع بيسر ان تعبر عن مختلف العلوم والفنون واهم .

نعم ، ان اللغة العربية غنية بمفرداتها في نواح كثيرة ، عظيمة الامكانيات في اشتقاقها وقياسها ، وقد استطاعت يوما ان تنقل اليها حضارات الشرق الادنى عن طريق الترجمة والتعريب والتوليد واحياء مفردات قديمة واسباغ المعاني الجديدة عليها . ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الاخيرين ـ وفي القرنين الاخيرين كنا نياما ـ كان سريعا فافقنا ولغتنا عاجزة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة .

لن نقف طويلا عند هذه النقطة ، ولن نحاول ان نقنع من لا يريد ان يقتنع بان العربية عاجزة في وضعها الحالي عن التعبير عن الحضارة الغربية . فالادلة ميسورة، وها هي جامعاتنا تعلم العلوم والفنون بلغة اجنبية لا لانها ترغب في ذلك كما قد يتوهم بعضهم بل لاقتناع اهل الفكر عندنا ان تعليم الطب والكيمياء والحيوان والنبات و.... و...، امر عسير . وكل من درس علما وكل من عانى التعبير عن هذا العلم بدقة ووضوح يسلم معنا ان الامر لا يحتاج الى جدل .

لا يزيد عمر الحضارة الغربية الحديثة عن ثلاثة قرون . وهذا لا

يعني ان جذورها لا تمتد الى عصور بعيدة في الزمن : الى بابل واثينا وروما والاسكندرية وحرّان وبغداد . ولكن الحضارة الحديثة بعلومها ورقيها المادي وتطورها الفلسفي من صنع اوربا الحديثة . في هذه الفترة من الزمن لم تتح لنا فرصة للاسهام في هذا الخلق الحضاري . ونحن لا نأخذ بقول الغلاة فيما بيننا الذي يدّعون بان حضارة الغرب من الشرق ، وان كل علموفن مردّه الى نشاط العرب في العصور المتوسطة. لا شك في انهم اشتركوا في هذه العملية، ولكن نشاطهم توقف عند زمن معين . ولا يعنينا الآن تعيين السبب في توقفهم عند هذا الحدّ بقدر ما يعنينا ان نقرّر اننا كامة عربية في العصر الحديث لم نشترك اشتراكا فعلياً في خلق الحضارة الحديثة لاننا كنا في شبه سبات . ومن لم يسهم في الاختراع والاكتشاف والابتكار فانه سيجد عقبات في التعبير عنها . عليه ان يقتبس ويولد ويُلين لغته لتصبح اداة طيعة للتعبير عن الصور المادية والروحية التي تخلو لغته منها . للاوربيين معين لغوي لا ينضب هو اللغة الاغريقية واللاتينية . وهذان الشعبان اسهما في خلق الحضارة العالمية . وكانت لغتهما مرنة لينة استطاعت ان تعبر عن هذا الخلق . ويصدف ان لغات اوربا تشترك والاغريقية واللاتينية في كثير من المميزات اللغوية ، الامر الذي يجعل وضع المصطلحات امراً يسيراً . وعندما نشترك مع الامم المتحضرة في الخلق والأبتكار والاكتشاف عندئذ نستطيع ان نعبر عن خلقنا بلغتنا .

ولكن لا يجوز ان تبقى العربية على ما هي عليه من هذا العجز في التعبير الى ان يخلق العلماء والفلاسفة والفنانون العرب مصطلحاتهم وتعابيرهم ، لان الحياة العصرية تتطلب منا ان نلحق بركب الحضارة . فلا ضير في الاقتباس جملة اذا تعذر وجود مرادف عربي، فان العربية هضمت مفردات اجنبية كثيرة من اللاتينية والاغريقية والآرامية والفارسية والحبشية . وتحسن الاشارة الى نقص في العربية ، اعني عدم الدقة في تحديد المعنى، واول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح. ومما لا شك فيه ان العربية غنية في بعض النواحي كأن يكون للشيء الواحد عشرات ، لا بل مئات من الاسماء بينما لا تجد لفظة واحدة لاشياء تقع تحت حواسنا. خذ مثلا بسيطا من علم اللغة « Linguistics » مع العلم بان العرب اشتغلوا في هذ الحقل وبرزوا فيه ، فانك تجد صعوبة في نقل كتاب يبحث في الفونتيك (علم الصوت) او النظريات الحديثة في بسيكولوجية اللغة . وعلى ذكر «علم الصوت» نقول ان الانكليرية تفرق بين: voice ; sound , noise , acoustics , pitch , tone , resonance , intonation, phonology.

وانت اذا اردت ان تتكلم عن هذه بدقة فانك لا تجد سوى لفظة «صوت» وكذلك الافرنسي يفرق علميا بين: Langue , language , parole , parler

فكيف تفرق انت بينها وليس عندك سوى لغة او لسان ؟

ولكننا لا نقول ان هذا العجز صفة ملازمة للغة . فانه اذا نشطت

العقول وكان عندنا الجرأة فان العربية تستطيع ان تلحق بالعلوم والفنون.
وجل ما نريد قوله هو ان هذا العجز عن اللحاق بالعلوم والفنون مشكلة
من مشاكل العربية الاساسية .

هذه هي مشاكل العربية الاساسية وكل مشكلة تحتاج الى دراسة
عميقة والى حلول عملية . ولكننا في هذا الكتاب لن نتصدى الا الى
المشكلة الاولى : ازدواجية اللغة لانها ، في نظرنا اخطرها . ونحن نعلم
مسبقا ان الموضوع حساس وقد يعرضنا للنقد والتسفيه .

ولكن ايماننا بان المشكلة اللغوية على جانب من الخطورة وبانها
تتطلب حلاً سريعاً لانها قضية تتعلق بالفكر والحضارة . ويقيننا بان
الفكر لن يحل من عقاله ليساير الحضارة مالم يتحرر اولا من قيود اللغة
وشائكاتها ، جميع هذه قد دفعتنا لمعالجة الموضوع . وفي سبيل الفكر
نحن على استعداد لتقبل كل نقد وتسفيه .

ما هي اللغة ؟

لن نجيب على هذا السؤال ، الذي يبدو بسيطا ، بتعريف جامع مانع كأن نقول: اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر او اداة للتفاهم او وسيلة لنقل المعاني، لان صوغ تعريف علمي شامل للغة ليس بالامر اليسير كما قد يتبادر الى الذهن. غير اننا نعد القارىء الذي اعتاد الاحاطة بالامور عن طريق التعاريف القصيرة اننا سنحاول في آخر هذا الفصل تعريف اللغة على الطريقة التي الفها .

وقد يبدو ترددنا في تعريف اللغة غريبا ، لان اللغة من الامور الطبيعية المألوفة التي يمارسها جميع البشر على اختلاف اجناسهم عفويا. فانها لا تتطلب جهدا ولا تفكيراً . يستعملها الولد بيسر، وهي عنده عملية بسيطة كالمشي والاكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام. وها نحن نتكلم في كل حالة من حالات الحياة وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نائمين او حالمين او هاذين . فلماذا نقول ان تعريفها امر شاق .

خذ هذا التعريف المكرر : « اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر » وحاول تطبيقه علي واقع اللغة ثم سل نفسك : هل صحيح ان اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر ، هل اللغة مجموعة اصوات ؟ هل فكرة « البيت » قائمة في الاصوات التي تتألف منهااللفظة ؟ بكلام آخر ما علاقة اصوات حروف الكلمة بمعناها ؟ أليس المعنى قائما في الاختبار لا في الصوت ؟ عندما نسمع لفظة « بيت » أليس الاختبار في حنايا العقل الذي يترجم الصوت الي معنى ؟ ولك ان تسأل هل كل صوت هو « لغوي » ؟ كلا فان هناك اصواتاً عديدة لا تدخل في نطاق الاصوات اللغوية كالاصوات الطبيعية والحيوانية وكبعض الاصوات التي نخرجها من بين الاسنان ، او من الخيشوم ، او من اقصى الحلق ، او كالاصوات التي نحدثها بالتواءات مختلفة للسان ، جميع هذه الاصوات لا تدخل في نظام الاصوات اللغوية . اذن علينا ان نحدد كلمة الصوت اللغوي . وعلماء اللغة ، رغبة منهم في الدقة العلمية ، يطلقون على اصوات اللغة مصطلحا علميا : فونيم (وجمعها فونيمات Phoneme) اي الوحدة الصوتية للغة. ويعنون بالفونيمات مجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة . وتتمثل الفونيمات عادة بحروف الهجاء ، ولكن حذار من ان نعتقد ان عدد الفونيمات في اللغة ينبغي ان يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة . كلا ، فقد يكون للغة ما ٢٦ او ٢٧ او٢٨ حرفا هجائيا ولكننا اذا احصينا عدد فونيمات هذه اللغة لوجدنا انها

تربو على عدد حروف الهجاء. ونمثل لك على هذا بفونيم «ث» في اللغة الانكليزية فانه عنصر من عناصر اللغة كما في thin . ولكن هذا الفونيم لا رمز له (اي لا حرف له) بل يرمزون اليه بحرفي th . وقل هذا في فونيم «ذ» فانه عنصر من عناصر الأنكليزية كما في لفظة mother ولكن فونيم « ذ » لا رمز له (لا حرف له) بل يرمزون اليه بحروف اخرى .

وفضلا عن هذا فان علماء الفونتيك يقولون لنا ان للفونيم الواحد اكثر من لفظ واحد . قد يكون له ثلاثة الفاظ او اربعة . فان فونيم p في كلمة speak هو غيره في اللفظ في كلمة park . وقل هذا في فونيم t فانه في sting غيره في teem . قد لا تستطيع اذني او اذنك ان تميز بين لفظ وآخر للفونيم الواحد ولكن الالة المسجلة والفونتيكي المجرب يستطيعان ذلك.

وما قولك في هذه الفونيمات : o i e a ؟ الا تختلف لفظا تبعا لوقوعها في كلمات مختلفة ؟ هل الفونيم a في father وفي fat وفي female واحد في اللفظ ؟

ثم اعتبر الشق الثاني من التعريف: « اللغة اداة للتعبير عن الفكر». يقول لنا بعض البسيكولوجيين ان اللغة هي الفكر ذاته ، او هي اساس الفكر وطريق الانسان للفكر . ويؤكد بعضهم اننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات . فاذا قبلنا هذا التحديد - بانها اداة للفكر - نكون قد

فصلنا الفكر عن اداة التعبير عن الفكر ، وهذا مما لا يقبل به البعض . وخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكولوجية ولنعد الى صعيد ادنى ونسأل : اذا قبلنا هذا التحديد الا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون ولكنهم لا يعبرون عن الفكر ؟ الا نكون قد حقرنا الفكر باعتبارنا كل ثرثرة تعبيراً عن الفكر ؟ عندما يغضب احدنا ، او عندما تنهال من فيه الشتائم والمسبات ، او عندما يحيي بعضنا بعضا ، او عندما نتكلم لانفسنا ونحن سائرون في الطريق او مستلقون على فراش ، هل في هذه المواقف ، والشبيهة بها ، تعبير عن الفكر ؟ ثم اننا احيانا نرغب في التعمية والتمويه والاخفاء واداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا انها لنقل الفكر او للتعبير عنه !

لا نكران ان اللغة اداة للتعبير عن الفكر احيانا ، فالمحاضر يعبر عن افكاره بوساطة اللغة ، والمعلم في مدرسته ، والعالم في مختبره ، والنائب في برلمانه ، والصحافي في مكتبه ، جميع هؤلاء يعبرون عن الفكر باللغة . ولكن حصر اللغة بانها اداة للتعبير عن الفكر امر بعيد عن الواقع .

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة . وقد يكون منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر . اللغة للغناء ، للشعر ، للاقاصيص ، للاساطير ، للخرافات ، فهي بهجة ومتعة ، وهي متنفس عن حزن والم .

واني اعجب من الرجل القاسي الذي يحكم على المرأة بانها ثرثارة. المرأة مخلوق طبيعي وتشعر ان هذه الهبة العظيمة ـ اللغة ـ للثرثرة وللكلام في غير المواقف الرسمية. اللغة عندها شيء مستحب، والثرثرة بهجة ومتعة. وفي هذا كثير من الصحة.

الواقع ان اللغة اكثر من مجموعة اصوات، واكثر من ان تكون اداة للفكر او تعبيراً عن عاطفة. اللغة جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي، وهي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد، وتتناول اربعة امور اساسية لتمام العملية المعقدة:

ا ــ متكلم

ب ــ مخاطب

ج ــ اشياء او فكر يتكلم عنها

د ــ كلمات او مفردات (او اشارت ملامحية او يدوية) وهي مجموعة فونيمات لها في الذهن صور معينة، اي معان.

ولا يضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلا بسيطا لا يتبادر الى اذهاننا انه على شيء من التعقيد. تصور رجلا يمشي في حقل مع ولده الصغير. يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي فيقول لوالده: «اقطف لي يا بابا تفاحة.» وقد ينزل الوالد عند طلب ولده، فيتناول تفاحة، وقد لا ينزل عند طلبه فيقول: «لا التفاح ليس لنا، للتفاح اصحاب.»

فلنحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية.

تبدأ العملية بالصور المرئية، بعالم الاشياء المحيط بنا، وهو العامل المؤثر، فيشتهي الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية الى صورة كلامية تعبيرية: «اقطف لي يا بابا تفاحة.» كيف تحولت الصورة الذهنية الى صورة صوتية؟ اين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق؟ ماذا جرى؟ وكيف تم؟ ثم ان هذه الاصوات التي فاه بها الولد انتقلت الى اذن الاب بوساطة تموجات في الهواء اولا ثم الى دماغه ثانيا. كيف؟ ماذا كان رد الفعل؟ كيف فهم المخاطَب المخاطِب؟ ماذا دار في دماغ الوالد عند سماع الفونيمات، وهل المعنى في الصوت ام ان المعنى قائم في الاختبار؟ اي ما العلاقة بين الاصوات والمعنى؟ وكيف توصل الى حكم اولا في العقل ثم استحال الحكم الى اصوات تعبيرية فقال له «نعم» او «لا». «التفاح ليس لنا.»؟

هنا يتدخل البسيكولوجي ويقول: درس اللغة ليس من اختصاص علماء اللغة بل فرع من فروع علم البسيكولوجيا. اللغة «تصرف رمزي Symbolic behaviour ولا تفسر الا على اساس المؤثر ورد الفعل. هاتان العبارتان: «اقطف لي تفاحة» و«التفاح ليس لنا» رد فعل بسيكولوجي، ولا معنى لهاتين العبارتين الا اذا فهمنا الظروف المحيطة

بالوضع الذي نطق بهما . ثم ان البسيكولوجيين انفسهم ، اذا سلمنا ان درس اللغة من اختصاصهم ، يختلفون كثيرا فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر . فقد كان بعضهم الى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسي او الروحي ، اي ان هناك قوة روحية او عقلية او نفسية غير مادية تحرك الانسان . ولكن جلهم الان يعللون هذه الظواهر البسيكولوجية على انها عمليات فيزيائية ميكانيكية : مؤثر ورد فعل وتلاؤم وتصرف رمزي .

يرى القارىء مما تقدم ان اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا اثارة اسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض . اما نحن فيهمنا من الامر تقرير الواقع : اللغة ظاهرة اجتماعية بسيكولوجية قبل ان تكون كلمات واصواتا وصرفا ونحوا . وهذا امر هام جدا بالنسبة الينا نحن العرب ، فاللغة عندنا اداة مركبة من اصوات فكلمات فتراكيب ، بينما هي في الواقع الفكر ذاته (عند بعضهم) او طريق الفكر لادراك الوجود (عند البعض الاخر) ولا كيان للغة بمعزل عن المجتمع . فان سويت ودي صوصير السويسري يقولان ان لا كيان للغة الا في ذهن الافراد .

بعد هذا الاسهاب للقارىء ان يطالبنا بتعريف اللغة فنقول :

اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة[1] ، لا

---

(١) اذا فصم طفل عن المجتمع فانه لن يتكلم بل ينطق باصوات غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لها معان . وكذلك اذا نشأ طفل في محيط غير محيطه فانه يكتسب لغة القوم الذين يعايشهم .

صفة بيولوجية [1] ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن . وبهـــذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما ان تتفاهم وتتفاعل . وباللغة فقط صار الانسان انسانا ، وباللغة فقط تطورت الحضـارة وتقدم العمران وبلغ العقل الانساني ذروته . فدرس اللغـة درسا علميا فلسفيا درس في الانسان وفكره .

---

(١) ان اعضاء النطق كالحلق واللسان والرئتين والحنجرة ، وغيرها كثير ، ليست للنطق اولا اي ان وظيفتها الاولى هي غير النطق .

كيف نشأت اللغة

لا نعلم على وجـه التحقيق . اصل اللغة وثيق الاتصال باصل الانسان ذاته وبتطور جسمه وعقله . اذن قضية اصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة ، ولا تدخل في نطاق علم اللغة Linguistics بل في نطـاق البسيكولوجيا والانثروبولوجيا والفلسفة .

ان معرفتنا بتاريخ الانسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الاخير . ولكن رغم تقدم معارفنا في هذ االحقل فـان اصل الانسان ونشأتـه من حيوان ابكم الى حيوان ناطق ، مـن حيوان لا يعقل الى حيوان عاقل ، لا يزال مكتنفا بحجب من الاسرار . ولكي نهتك هذه الحجب علينا ان نرجع الى عهود سحيقة في القدم لا نعلم عنها شيئا علما يقينيا ، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس او خيال ، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات ، الا اذا كانت افتراضات قيد البرهان .

ولكن اصل الانسان ونشأة لغته امر يثير الخيـال ويستأنف الى العقل . ونعتقد ان اصل اللغة مـن اقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الانسان . فان كاتب قصة الخليقة عزاهـا الى الله . الله علم آدم

الكلام . وقد انقسم العرب الى قسمين ازاء هذه المشكلة[١] . فقالت جماعة ان اللغة توقيفية ، اي ان الله علمها الانسان ، وقالت جماعة انها اصطلاحية توافقية . وكان هم علماء اللغة ، منذ مطلع القرن التاسع عشر الى زمن قريب منا ، ان يتوصلوا الى حل هذه المشكلة . ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة . وكثر القول فيها الى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية La Societé de Linguistique تمنع بقانون القاء محاضرات في هذا الموضوع ، لان هذه النظريات - وسنذكر لك نتفا منها - لا تفسر اصل اللغة . وقد كانت الجمعية اللغوية هذه على شيء من الحق في منع الموضوع ، لانه ، كما ذكرنا آنفا ، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو اقرب الى الحدس والخيال . يجب ان يبحث عن اصل اللغة في نشوء التصرف او السلوك الرمزي Symbolic behaviour

ولكن من قبيل العلم بالشيء لا الاخذ به يحسن بنا ان نأتي على ذكر بعض هذه النظريات ، ان لم يكن لغرض سوى ان ندلل بان اللغة تنشأ من اسفل وترتقي الى اعلى ولا تهبط من عل الى اسفل. منها:

---

(١) ترى نموذجا من هذا البحث في ابن جني (ابو الفتح عثمان) في كتابه الخصائص باب القول على اصل اللغة الهام هي ام اصطلاح. ص ٣٩ (مطبعة الهلال بالفجاله ١٣٢١) وعنه اخذ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في المزهر في علوم اللغة وانواعها ص ١٧ - ٢٠ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

(١) نظرية البو — وو Bow - waw ١

ومفادها ان اصل اللغة محاكاة اصوات طبيعية . وقد اشار العرب الى هذه النظرية بطريقة غير مباشرة عندما تكلموا في « حكاية صوت[٢] وقد ادى الى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة ، في كل لغـــة ، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقـة والقهقهة والحفيف والخرير والخشخشة والطقطقة . واننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoo وهي اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه . وقل هذا في لفظة «مو» فانها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة . وظاهر ان التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع الى ان الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه .

---

(١) الكتب والمقالات التي تبحث اصل اللغة عديدة جدا نكتفي بذكر مقالـين جامعين يلخصان للقارىء الذي لا يهمه التبسط في الموضوع اهم ما قدم من نظريات . المقال الاول تجده في ،

w. B. Pillsbury and C. L. Meader : The Psychology of Language , PP 112 - 128. New York and London 1928.

والمقال الثاني في :

Otto Jesperson : Language,
its Nature Development and Origin, PP 412 - 442
Allen and Unwin, London 1922.

(٢) ويشير اليها ابن جني في كتابــه الخصائص المذكور آنفـا في فصل يعنونه «احساس الالفاظ اشباه المعاني . ص ٥٤٤ . وعنه نقل السيوطي في كتابه المزهر المذكور آنفا ص ٤٨ .

ولكن الكلمات التي يمكن ان تفسر على مبدأ نظرية البو - وو قليلة جدا . وفضلا عن هذا فان النظرية تعجز عن ان تفسر لنا كيف استغل مبدأ «حكاية الصوت» في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن اية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظة ابريق ومعناها؟ وما العلاقة بين لفظة المنضدة ومعناها ؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة انما العلاقة بسيكولوجية ، اي من نوع قرن الاصوات بصور قائمة في العقل .

(ب) نظرية الاصوات التعجبية العاطفية Interjections

وتعرف بنظرية Pooh - pooh . ومفادها ان الكلمات الاولى التي نطق بها الانسان كانت اصواتاً تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة اوفرح او وجع او حزن او استغراب او تقزز او تأفف . ومثال هذا لفظة - تأفف - التي استعملناها نحن . عندما يتأفف الالماني يقول ! Pfui وعندما نتأفف نحن نقول - اف او اوف - وعندما نتحسر او نتلهف نقول : « وي » وهي لفظة ترد في جميع اللغات السامية ، ويتبعها عادة حرف الجر « ل » فيقال « و ي ل » وعلى مر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة « ويل » كما امتزج اسم الموصول « ما » مع حرف الجر « ل » فاصبح « مال » . وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة « ويل » وهي Wa - la

ان ما قلناه عن النظرية الاولى ينطبق على النظرية هذه . لأنه اذا استطاعت نظرية كهذه ان تفسر بضعة الفاظ فانها تعجز عـــن تفسير الوف من الالفاظ التي لا نرى كيف يمكن ان تكون في اساسها تعجبية عاطفية او مشتقة من عناصر تعجبية عاطفية . مــــا علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفيل والحصان والانسان بالاصوات التعجبية العاطفية؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(ج) نظرية محاكاة الاصوات معانيها Ding - dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوي الشهير[١] . ومفادها ان جرس الكلمة يدل على معناها . وهي لا تختلف عن نظرية البو - بو . وقد اشار اليها العرب ايضا بطريقة غير مباشرة عندما اشاروا الى ان للحروف معـــاني[٢] . فحرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة ، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن كما في غم وغيم وغبن وغبطة . ولكن كيف نفسر لفظة غني وغنج وغلام ؟

مما لا شك فيه انك اذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيهـــا

---

(١) F. Max Mueller : Lectures on the Science of Language, London 1864.

(٢) والافضل ان ينظر في المقطع ، لا في الحرف ، كما فعل الاب ا . س . مرمرجي في كتابيه : معجميات عربية - سامية - جونية ١٩٥٠ - والثنائية .

فونيم واحد تجد ان معانيها متقاربة . ولكن‌ان نرد معاني الوف الالفاظ الى ٣٠ او ٣٥ فونيما او وحدات صوتية فاننا لا نفسر اصل اللغة بـل نزيد في غموض المشكلة . اذ لك ان تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة الى معان لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة في « لسان العرب » مشتقة من ٢٨ فونيما ؟ هذه النظرية لا تفسر اصل اللغة ، بل تزيدها تعقيدا .

(د) نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية

وتعرف بنظرية Yô - hê - hô وهي المقاطع الطبيعية التي يتفوه بها الانسان عندما يستعمل اعضاء جسمه في العمل اليدوي . فكأن هذه الاصوات التي يخرجها عفويا عند القيام بعمل عضلي عنيف تخفف شيئا من حدة العمل . ومن هذا القبيل اغنية المجذفين على نهر الفولغا . وانت اذا وقفت الى جانب عامل يقطع صخرا او شجرة ، او اذا راقبت حدادا او مجذفا او رجلا يرفع حملا فانك تسمع اصواتا ترافق حركاته . وفي الحداء وفي الرقص الايقاعي تسمع اصواتا تتلاءم والحركات الجسمية .

ولكن هذه النظرية ايضا تفسر جزءا يسيرا من اللغة ، ويبقى السر العميق : كيف نشأت اللغة من هذه الاصوات العفوية التعبيرية التي

ترافق حركات الجسم ؟ ما علاقة لفظ الاب والام والحنان والجمل والجمال وهذه الاصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية ؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة .

«هـ» نظرية الاشارات الصوتية

وللسر ريشارد باجت Paget [١] نظرية جديدة لم تلاق قبولا . ومفادها ان الكلمات هي اشارات صوتية Verbal gestures . يقول باجت ان الانسان القديم كان يتفاهم بالاشارة - الاشارة باليد والاشارة بتقلص عضلات الوجه - ولكن عندما صار يستخدم يديه لامور اخرى اصبح يشير الى الاشياء باصوات . ومما ساعد الانسان على ترك الاشارة اليدوية والملامحية والاستعاضة عنها باشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلا . ففي النهار يرى الانسان صاحبه ويستطيع ان يقوم باشارات يدوية ترى ، ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام ؟ عند ذاك بدأ الانسان بالتعبير عن الاشياء باصوات ، وهذه الاصوات في الفم تحاكي الاشياء المعبر عنها . وتعرف نظريته بنظرية ta - ta اي انك عوضا عن ان تشير الى شيء بيدك تشير اليه بلسانك فتقول ta - ta

ويستطيع القارىء ان يرى لنفسه وجه التكلف في هذه النظرية

(١) Sir Richard Paget: Human Speech. London and New York, 1930.

التي لا تفسر اصل اللغة ، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابة كتـــاب ضخم في الموضوع .

(و) معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة

عندما حلت رموز اللغات القديمة ـ السومرية ، البابلية ، المصرية الحثية ، الكريتية ـ وعندما تعرف علماء اللغة الى اللغات المتـــأخرة كلغات الهنود الحمر والزنوج واهل اوستراليـا الاصليين ، نقـول ، عند الكشف عن هذه الغات ظنوا وَهماً ان في دراسة هذه اللغات مـا قد يجلو الغموض الذي يكتنف اصل اللغة . وسبب الوهم ظنهم ان هذه اللغات بدائية وقديمة ، اذن قد يكون فيها عناصر « طبق الاصل » للغـة الانسان القديمة . ولكن الواقع ان هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة ، بل حديثة نسبة الى عمر اللغة.فقد اثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات ان وراء كل لغة منها تاريخا مديدا لا ُيعلم له بدء ، وانها ليست بدائية في صرفها ونحوها واساليبها ، بل هي نتيجـة تطور وتغيير مستمرين . وقد وصلت الينا هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها مـا يدل علي بدائية . اللغة قديمة جدا . يظن ان الانسان بدأ يتكلم منذ مئة الف سنة ، وهذه اللغات ، وان اعتبرناها وهماً قديمة او بدائية ، فـــان وراءها عشرات الالوف من السنين كانت فيه عرضة للتغيير والتطور .

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح ، وهو ان اللغات التي اعتبروها قديمة او بدائية بسيطة في تركيبهـا ، اذن هي اقرب الى الاصل على اعتبار البساطة من مميزات اللغات القديمـة

البدائية .

كان استاذنا ادورد سابير Sapir ، احد اعلام علم اللغة ، واحد الثقات في لغات الهنود الحمر ، يقص علينا الكثير من الطرائف في لغات هنود اميركا . كان يؤكد لنا هذه النقطة : كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق ، وكلما تقدمنا نحو الاعصر الاَخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق . يقول ان في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب : واحد للنساء وآخر للرجال . اي ان لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظة بيت في لغة الرجال. وهناك لغات لا تعرف لفظا واحدا عاما لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد . فاننا نقول اكل خبزا واكل لحما واكل عنبا ، اما عندهم فلكل نوع من الاكل لفظ خاص . فعل اكل في «اكل عنبا» هو غيره في «اكل موزا» . ولا يقف الامر عند هذه الغرائب بل نجد ان الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل .

ان بقايا هذا التعقيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية . خذ التأنيث مثلا ، فان الانسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ المذكر . ففي العربية نقول :

رجل : امرأة

خروف : نعجة

تيس : عنزة

حصان : فرس

اسد : لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصرفي يجد مدخلا الى اللغة واصبحنا نقول :

لطيف : لطيفة

كبير : كبيرة

مؤمن : مؤمنة

واليك مثلاً آخر على انعدام المنطق في اللغة : تذكير العدد مع المؤنث وتأنيثه مع المذكر . نقول ثلاث نساء وثلاثة رجال . اين البساطة واين المنطق ؟ ولكن ماذا حدث على ممر الايام ؟ نقول اليوم « تلات نسوان وتلات رجال» .

نعود الى نظرية معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة البدائية فنقول ان دراسة هذه اللغات اثبتت اولا انها ليست قديمة جدا كما توهمنا ، وليست بدائية كما احببناها ان تكون ، فلم تسعفنا في الوصول الى معرفة الاصل بل اننا لا نزال في الظلام .

«ﻫ» دراسة لغة الاطفال

واخيرا ، بفضل تقدم العلوم التربوية والبسيكولوجية ، اتجه هم بعض الباحثين في نشأة اللغة الى دراسة لغة الطفل من مراقبة نمواعضاء النطق واخراج الاصوات وكيف تكتسب الاصوات معاني في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لاسباب عديدة منها ان الطفل لا يعيد تاريخ نشأه اللغة ، لان اللغة مكتسبة لا وراثية . فانه اذا فصل طفل هندي او عربي او ياباني عن محيطه في يومه الاول ووضع في محيط آخر ، كأن نضعه في برلين او موسكو، فانه ينشأ لغة المانيا او روسيا . ثم ان اعضاء النطق في الانسان ليست اصلا للنطق . فانه كان يوم لم تكن فيه لغة ، وهذه الاعضاء الجسمية التي نسميها اعضاء النطق هي لاغراض جسمية اولا ثم للنطق ثانيا كاللسان والرئةوالحنجرة وغيرها . هذه الاعضاء اكتسبت استعداداً ان تلين لعمليات النطق اما هي فيجوهرها فلاغراض جسمية اخرى . واهم من هذا كله ان لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الاولى التي ينطق بها ـ لان ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة ـ ليست افعالا ولا اسماء ولا حروفا ولا جملا مركبة من مبتدأ وخبر انما هي اصوات بدائية لاغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتا يعني : انا منزعج . هل من يريحني ؟ وصوتا آخر يعني أنا جائع . وصوتا آخر يعني انا اتألم من وجع . نحن نسبغ على هذه

الاصوات معاني ، والطفل بدوره قد يقرنها بمعان وبحالات واستجابات، ولكنه عندما يكبر يعلمه المجتمع ان يقول : انا جوعـان ، انا متألم ، انا سعيد ... الخ . فالمجتمع اذن يعطيه اللغة ، وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق، واذا ابتكر او خلق كلمات مثل كلمة «نَنّي» في لبنان او «ان كغ» فاننا لا نقبلها منه ونقول له قل «أكل» او قل «انا مبسوط !» اذن دراسة لغة الطفل لا تلقي كثيرا من النور على السؤال الذي عنونا به الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وانت ترى الأن لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل يتركها لعلـــوم اخرى كالبسيكولوجيـــا والانثروبولوجيا والميثولوجيـا اذ ان اللغة لم تبدأ بالمنطق والفكر ، اذ لم يكن هنـاك منطق او فكر . علينـا ، ربما ، ان نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الاسطورة وتطورها اذ ان الاسطورة واللغة في مبدئهما من نسيج واحد ودوافعهما الحيـاتية من معدن واحد [١] .

---

(١) من له رغبة في هذه النظرية الاخيرة عليه ان يراجع دراسة لعالم الماني :

Ernest Cassirer : Sprache und Mythos (No . VI Studien der Bibliothek Warburg.)

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية ـ اللغة والعرق والعقلية ـ بال علماء اللغة في القرن التاسع عشر ، اذ حاولوا ، تحت تأثير علم الانثروبولوجيا والاثنولوجيا ، ان يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك . وحاولوا ان يجدوا في اللغة ، ولا سيما في تركيبها، اي في صرفها ونحوها ، انعكاسا للميزات العرقية والاخلاق والمثل والنظرة الى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة . والدراسات التي عنيت بطبائع الشعوب ومميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد. وجميعنا يذكر ارنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص[1] . واني اذكر قراءة مقال لعالم الماني يبحث الفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة ، ومن جملتها لفظة interessant . يقول ان هذه اللفظة الغربية لا يمكن ان تنقل

Ernest Renan : Histoire genéral et système comparé des langues Sémitiques, Paris.

(١) وراجع رد ثيودور نولدكه عليه في مقاله الرائع اللغات السامية الذي ترجم خصيصا لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان : semitic languages الطبعة الثالثة عشرة .

الى لغة سامية ، واذا نقلت فانها تفقــــد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية. ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة interessant الى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية . اذن لا يمكن الشعب السامي ان يكون قد اسهم في خلق العلم والفلسفة والفن ، لان اساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية والشغف الروحي والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون.

وكان من حرصهم على هذه الدراسات انهم حاولوا تصنيفها الى عائلات والنظر في خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة الى ثلاث عائلات كبرى :

ا ـ الفاصلة Isolating

ب ـ اللاصقة Agglutinative

ج ـ المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (او الجذر) انى وقع في التركيب. اما العلاقة الصرفية والنحوية بين كلمة واخرى في الجملة فتتوقف علي موقع الكلمــة في الجملة لا على تصريفهــا او على حالاتهــا الاعرابية. واللغة الصينية هي من هذا النــوع. فان الضمير انا لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية تبعا للحالات الاعرابية والصرفية، بل يظل على شكله الاول، انما يتغير مركزه في الجملة، وهذا التغيير في

مركز الكلمة يدل على الحالة الاعرابيـة او على الوظيفـة النحوية التي تقوم بها الكلمة. وايضاحا للمسألة نقول ان في لغتنا نحن يتغير الضمير «انا» الى «تُ» في مثل اكلتُ ، ويتغير الى «ني» في مثل احبني ، ويتغير الى «ي» في مثل كتابي ، واذا آكدناه قلنا اياي. اما في الصينيـة فيقال: اكل انا احب انا كتاب انا وفي حالة التأكيد انا انا.

واللغـة الانكليزية تحتفظ بعنـاصر من العائلات اللغوية الثلاث. فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفـة. ومثـال على ميزتهـا الأولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية :

Li, Mean , You , What , Know فانك تستطيع ان تركب منها عبارات عديدة ولكل عبارة معنى يختلف عن معنى الاولى ، ولكن تبقى هـذه الكلمات على شكلها ، انما يتغير موقعها في الجملة؛

What you mean I know .
I know what you mean .
You know what I meam .
What I mean you know ,

الخ ...

اما اللغات اللاصقة فهي التي لايتغير فيهـا الجذر انما نستطيع ان «نلصق» به في اوله او في آخره ، عناصر اخرى لخلق معـــان مختلفة . والتركية هي من هذا النوع ، وكذلك الانكليزية فاننا نقول :

Reason , reasonable , reasonably , unreasonable ,unreasonableness

وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الاصلي : Reaon

اما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيهـا الجـذر او تتغير حركته،

وقد يمتزج بعناصر اخرى، اوعناصر اخرى تمتزج به في اوله ووسطه وآخره ، وفي جميع هذه التغيرات يختلف المعنى . واحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كتب كُتِب كاتب مكتوب استكتب . . . الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة ارقى اللغات — ربما لان اللغات الاوروبية متصرفة ! - وحسبوا ان ادنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين . وقد قرنوا الاولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضاري البدائي القائم على وحدة العائلة ، وقرنوا اللغة الثانية ، الفاصلة ، بطور البداوة ، وقرنوا الاخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

ما لاشك فيه ان كثيرا من مفردات اللغة تعكس الى حد بعيد محيط الانسان الطبيعي ، والى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية . فالعربية مثلا قد احتفظت بطابعها الصحراوي ، واثر الصحراء والعيش الصحراوي القبلي الرحلي يبدو جليا في كثير من مفرداتها في لغتنا اليوم . ولكن يجب الا نسترسل في الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوي . فان علماء اللغة اليوم لايجدون ان التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة ، او انه يدل على طبائع معينة او اخلاق ومثل عليا او دنيا . خذ مثلا التركيب اللغوي الذي يدل على الملكية (وهو في علم النحو الاضافة)فنحن العرب نعبر عن ملكية خالد للكتاب بقولنا : « كتاب خالد » وعندما يسمع العربي هذه العبارة يفهم طبيعة

لعلاقة بين الكتاب المحكي عنه وخالد . والانكليزي يعبر عنها بقوله :

The book of Khalid   Khalid's book   او

ويعبر عنها الالماني بقوله :   Das buch des Khalids

ويعبر عنها الافرنسي بقوله :   Le livre de Khalid

وانت ترى ان الغاية قد تمت في جميع هذه اللغات ، وهي اظهار علاقة الكتاب بخالد ، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ اليـــه العربي او الانكليزي او الالماني او الافرنسي للتعبير عن الفكرة . ولا مبرر للقول بان التركيب العربي احسن مـــن التركيب الالماني او ان التركيب الالماني يعكس عبقريـــة لا نجدها في التركيب الانكليزي . جميعهم ارادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقـة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفـــة . اذن اللغة نتيجة لا سبب ، وان نعزو الى التركيب خصائص عقلية وروحية واخلاقية فامر مبالغ فيه جدا . وعلماء اللغـــة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون ان يروا في اللغة وتر كيبهـا انعكاسا للعقليـــة والاخلاق . فان في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير بيسر وكفـاءة تفوق احيانا اللغة الالمانية .

والخلاصة يجب ان نفرق بين لغة وعرق وحضارة . فها هم زنوج

اميركا يتكلمون الانكليزية ولا يعرفون لغة غيرها . والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا في الحياة الاميركية لا يعرفون لغة غير الانكليزية. ولو كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم الا عرقا خاصا او عقلية خاصة او حضارة خاصة ، لما وجدنا ان اللغة الواحدة قد تكون مشاعا لاعراق عديدة واداة لحضارات مختلفة.

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الاخرى ، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بان هذه اللغة او تلك احسن اللغات وافصح اللغات واغنى اللغات واشرف اللغات هو من باب المباهاة . اللغة شيء والحضارة شيء آخر ، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب الا نخلط بينها.

علم اللغة

(Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا. هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة. ولا يعنى علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على انها ظاهرة انسانية اجتماعية بسيكولوجية، او هو جزء من درس المواصلات. وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا اللغوي والفلسفي لانه علم له اوثق العلائق بالفكر: الفلسفة والدين والادب والعلم والفن. بكلام آخر اللغة اساس جميع العلوم الانسانية، وهي طريق الانسان لفهم الكون والحياة.

ولكن ما يؤسف له ان يظل هذا العلم الحديث امرا مجهولا عند عامة المتأدبين وموضع استهزاء عند عامة الناس الذين ينظرون الى اللغة وعلمها انها من الدراسات الفارغة التي لا علاقة لها بواقع الحياة، او انها من جملة هذة الكماليات التي تتلهى بها العقول الخاملة. ولكن ما يسر له هو ان بعض الجامعات العربية (واخص بالذكر منها المصرية) بدأت

تنشىء له (علم اللغة) الدوائر وترسل البعثات الى الغرب للتخصص في هذه الدراسات .

وقد يسأل احدنا : هل تخضع اللغـــة للعلم ، للعلم التجريبي التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للكم وللكيف؟والجواب عن هذا هو ان علماء اللغـــة في ربع القرن الاخير حـاولوا مخلصين اخضاع اللغـــة للعلم وقوانينه كما حاول ، ويحاول ، علماء الاجتماع اخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم . وذلك لان اللغة ظاهرة بيولوجيـة اجتماعية بسيكولوجيـة ، والاسلوب العلمي يطبق في هذه العـلوم جميعها فما الذي يمنع من تطبيق الاسلوب العلمي على اللغة على اساس انها شيء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للمختبر ؟

وقد يعترض احدنا : ان اللغة ظـاهرة اجتماعيـة لا تلين لاحكام العلم الصارمة لانها في جريان او اندفاع مستمر (Continuous flux) وفي تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبى التقييد . انما نحن نقيد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها . وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة . ولذا يقول علماء اللغة اليوم ان وظيفة عـالم اللغـة هي في المرتبةالاولى الوصف (Description) . فانهم ينظرون الى اللغة على انهـا لغة الساعة التي يصفونها بها او عـــلى انها لغة القرن الرابع او الخامس او التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان

والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذ الاسلوب العلمي الذي اكثرنا الكلام عنه ؟ ان هـذا الاسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعية (Objectivity) اي تجردا عن الذاتيه ، تجردا عن كل غرض وهوى وسابق معرفة ،والبدء بالملاحظة والمراقبة وتدوين هذه الملاحظات. وبعد ان يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات (Data) يضع نظرية موقتة يظن انهـا تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لاحظها او دونها . ثم انـه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى اذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر. وهنا يثابر في التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً مـا يرى ان عليه ان يعيد النظر في صحة هذه النظرية . ولكن اذا تبين له انها تستطيع ان تعلل جميع هذه الظواهر فانه يعلنها قانونا او قاعـدة علمية . وقد طبق هذا الاسلوب في العلوم الطبيعية اولا وكان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالانسان صعدا في الحضارة الآلية ، وفي سعيه الحثيث للوصول الى حياة افضل ماديا وروحيـا . هذا الاسلوب العلمي يطبق الآن في درس اللغة . وقبل وصف هـذا العلم يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن تاريخ هذا العلم .

لعلم اللغة تاريخ مديد يبدأ بالبراهمة والاغريق والعرب ، فـان هذه الشعوب الثلاثة برزت في العلوم العلوية وليس لنـا ان نتبسط في

تاريخ علم اللغة لان هذا يخرجنا عن الموضوع ، ولكن نرى لزاما علينا ان نقول كلمة في القرون الثلاثة الاخيرة .

القرن الثامن عشر .

ويعرف في تاريخ علم اللغة بعصر الفيلولوجيا الكلاسيكية والمقابلات اللغوية . وقد جهد علماء اللغة في هذا القرن ان يتوصلوا الى معرفة اصل اللغة .وكانت اكثر مباحثهم اللغوية اقرب الى حقل الفلسفة منها الى حقل اللغة . وكانت خاتمة جهود هذا القرن اكتشاف اللغة السنسكريتية على يدي العالم السر وليم جونز واظهار العلاقة بين هذه اللغة وبين الاغريقية واللاتينية والانكلوسكسونية القديمة . ومن هنا كانت التسمية : اللغات الهندوجرمانية او الهندو اوروبية او اللغات الآرية نسبة الى اريا وهي ايران القديمة . كان هذا القرن بحق قرن الرومنقطية في العلوم اللغوية .

القرن التاسع عشر

ويعد هذا القرن في تاريخ علم اللغة قرن الدراسات التاريخية التطورية للغة من صرف ونحو وتركيب ودرس اسباب هذه التطورات والسعي لايجاد نواميس عامة تتحكم في مصائر اللغة . في هذا القرن حاول علماء اللغات ان يجدوا في اللغة اعادة سيرة الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك . وكانت لفظة فيلولوجيا عندهم مرادفة لدراسة عقلية

الشعب وحضارته . بكلام آخر كانت اللغة تدرس لغاية ولا تدرس لذاتها . اللغة مرآة تعكس روح الشعب .

وقد كان للعلوم البيولوجية في ذلك العصر اثرها في الدراسات اللغوية . يظهر لك ذلك في استعمال كلمة « عائلة» « واللغة الام » « القرابة » « والمهد الاول للغة » وجميع هذه المصطلحات وشبيهاتها مستمدة من علم البيولوجيا . وكذلك تبسط علماء اللغة في القرن التاسع عشر في دراسات معنى المفردات وتطورها في التاريخ . وافضل شاهد على هذه الجهود قاموس اوكسفرد للغة الانكليزية ولاروس للغة الفرنسية .

وكذلك قضوا وقتاً غير قصير في الجدل حول تصنيف اللغة بالنسبة الى باقي العلوم الاجتماعية والطبيعية : هل يدخل علم اللغة في باب علم الاجتماع ، ام في باب البسيكولوجيا ، ام في باب الفلسفة ؟

القرن العشرون .

اما القرن العشرون فيحق لنا ان نسميه في تاريخ علم اللغة القرن الوصفي (Descriptive) لانه لا يعنى بالناحية التطورية التاريخية ولا يعنى بالناحية البسيكولوجية بل تتركز الجهود في وصف اللغة وصفا علميا دقيقا سواء اكان ذلك من جهة الصوت (PhonologY) ام من جهة

الشكل (Morphology) ام من جهة التركيب (Syntax) وتمثل مدرسة لندن، قسم الفونتيك وعلم اللغة، هذا الاتجاه احسن تمثيل. فانك اذا كنت طالبا في هذه المدرسة وشاقك ان تعرف السبب لماذا، وكيف، ولاية غاية حدث هذا في تاريخ اللغة، ومتى حدث، لاجابك الأستاذ بقوله نحن هنا لسنا في دائرة التاريخ! لا يهمنا «لماذا؟» ولا نعنى بالاسباب والعلل لاننا لانعرف الاسباب والعلل. لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الامر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول. ولو انهم فعلوا هذا لقبلنا المنطق ذاته. يهمنا تقرير الواقع. اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة، لغة الساعة التي انت فيها، وعملنا هو ان نصف هذه اللغة على مراتب[1]: مرتبة الصوت، ومرتبة الصرف، ومرتبة النحو او التركيب، ومرتبة الاسلوب والبيان، وغيرها من مراتب. وعندما يتم وصف اللغة، ومتى تجمعت لدينا جميع المعلومات الاساسية عند ذاك يحق لنا ان نعمم، او ان نشير الى الاتجاه، او ان ننظر الى التاريخ، او ان نتلفت الى المستقبل. نحن لا ندرس اللغة درسا حدسيا بل واقعيا.

ما هو علم اللغة وما هي مادته؟ ان علم اللغة من العلوم الحديثة

---

(١) مرتبة ترجمة اللفظة الغربية Level. فانك اذا نظرت في الاصوات التي تتركب منها اللفظة فان دراستك لها تكون على مرتبه الصوت، On phnological level واذا نظرت في مقاطعها فانك تعنى بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure ..الخ

التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلا معينا محدداً كما هي الحال في بقية العلوم . وقد مر هذا العلم في طورين . ففي الطور الاول كانت مواد هذا العلم تنحصر في :

(ا) علم اللغة العام General linguistics

(ب) علم المقابلات اللغوية Comparative philology

(ج) درس التطور الصرفي والنحوي Historic gramar

اما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم الى جانب ما ذكرنا حقولا اخرى :

(ا) الحقل الفيزيائي — البيولوجي

(ب) الحقل البسيكولوجي — الفلسفي

(ج) الحقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحتة لا من جهة فلسفية .

اما علم اللغةالعام General linguistics فيعنى باللغة اطلاقا اي انه لا يحصر همه في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة انسانية اجتماعية ، فيدرس نواميسها العامة من صوت وتركيب واسلوب ، ثم ينظر في تطورها ونموها وانحلالها الى لهجات ، وينظر في اثرها في المجتمع . اما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعنى بمقابلة لغة باخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما . ويدرس التطور الصرفي والنحوي كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة اخرى .

ويحاول ان يجد في هذه المقابلات ما يلقي النور على الاسباب والعلل.
واما درس التطور النحوي والصرفي Historical grammar فيعنى بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية. وقد ينظر احيانا في الصرف الحي (Living grammar) اي صرف اللهجات ونحوها عله يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية. اما علم اللغة في الفترة الاخيرة فقد تناول كما اشرنا حقولا ثلاثة نحب ان نقف عند كل منها قليلا لنعرض على القارىء العربي اسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة.

الحقل الفيزيائي ـ البيولوجي

وهذه الدراسة تعنى بالاصوات اللغوية من ناحيتيها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physical) فان الصوت مجرى هوائي يبدأ في الرئتين، الى الحنجرة، الى الفم، الى مخرج الفم. ولكن هذا المجرى الهوائي في مسيره من الرئة الى الشفة يتكيف ويتحور ويتغير تبعا لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها في سيره كل من الاوتار الصوتية، فمؤخر الحنك، فاللسان، فالاسنان، فالشفتان. وتستطيع ان تدرك هذا لنفسك اذا قارنت بين التنفس العادي والنطق باصوات لغوية. فانك اذا دفعت بالهواء من رئتك فاتحا فمك ومانعا الاوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللسان والشفتين من ان تعترض المجرى الهوائي فلا يحدث في هذه الحالة صوت لغوي، بل يحدث ما نسميه تنفساً

عادياً . ولكن هذا المجرى الهوائي ذاته اذا اعترضه معترض تغير وتحور.
وعندما نقول ان في اللغة الفلانية ٢٨ او ٢٩ صوتا لغويا فاننا نعني علميا
ان المجرى الهوائي من الرئـة الى الشفتين يتحور ويتغير الى ٢٨ او ٢٩
صوتا مختلفا .

ويلاحظ القارىء ان الحقل الفيزيائي ـــ البيولوجي يتنـــاول
الأصوات اللغوية من ناحيتين :فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس
ووصف اعضاء النطق ، الحنجرة والاوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة
والانف واللسان والشفتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق ،
وفيزيائية وتعنى بطبيعة الصوت(Accoustics) ودرس الاصوات اللغويـة
من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك (Phonetics)وهو مـن الدروس
التي تفرض فرضا على كل من اراد التخصص في علم اللغة ، لانه درس
اساسي . وكما ان الطبيب لايمكنه ان يصبح طبيبا اذا لم يكن قـــد
اتقن اولا درس الفيزيولوجيا ، هكذا طالب علم اللغة لايستطيع تعليل
كثير من الظواهر اللغوية كالاعلال والادغام والاشمام والامالة والتفخيم
والاختلاس والتليين وانحلال النظام الصوتي ونشوء اللهجات اذا لم يكن
له معرفة بطبيعة هذه الاصوات وبالنواميس التي تتحكم بها ،

وليس لطالب علم اللغة ان يكون فيزيولوجيا يتخصص في دراسة
الجسم كله ، وليس له ان يكون عالما فيزيائيا . انما طبيعة اللغة وطريقـة

النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته . وقد انشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها اساتذتها ومختبراتها ومكاتبها . واذا قيض لك ان تزور احدى هذه الجامعات وجدت ان مختبر الفونتيك بالآلة المصورة والمسجلة واشعة اكس لا يقل تعقيدا واهمية عن مختبر الفيزياء . ان دراسة الصوت من ناحيتيه الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر في علم اللغة مقدمة له(Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هي اصوات تقرن بمعان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الان (Metalinguistics) اي ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة ، اي علاقة اللغة بالفكر والادب والفلسفة .

الحقل البسيكولوجي — الفلسفي

وقد المعنا الى اهمية هذا الدرس ، درس بسيكولوجية اللغة ، عندما بحثنا « ما هي اللغة ؟ » وقد مثلنا للقارىء بحادثة الولد الذي طلب الى ابيه اقتطاف تفاحة له ، وماذا دار بينهمامن كلام .وقلنا ان عملية التكلم على بساطتها الظاهرة ، عملية معقدة جدا تتناول الصور الذهنية التي يسببها تأثرنا بالعالم الخارجي ، والكيفية التي بها تتغير هذه الصورالذهنية الى صور صوتية تعبيرية . (Verbal symbolism) وقد سألنا اسئلة عدة عما يجري في الدماغ وكيف يجري ، وكيف تحضر المتكلم المفردات ، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقررة في الذهن . وهناك مشاكل

بسيكلولوجية فلسفية اخرى لها علاقة وثيقة باللغة. ما هي اقسام الكلمة؟
اتعلم ان علماء اللغة ليسوا على رأي واحد بل تختلف اجوبتهم عن هذا
السؤال كثيرا (من ٢ الي ٣ الى٧ الى ١٧) . ثم ما هو تحديد الفعل ؟
ما هو الأسم ؟ ما هو الحرف ؟ وهل التعاريف القديمة صحيحة دقيقة ؟
وما هي وحدة الكلام ، الكلمة ام الجملة ؟ هل صحيح ان الجملة هي
المؤلفة من مبتدأ وخبر او فعل وفاعل ؟ وما قولك بجواب مفيد مثل
« نعم »جوابا لمن يسألك : هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه ؟ هل
« نعم » جملة مفيدة ؟ وقد لا نقول « نعم » بل نكتفي باشارة بالرأس
او بالتغيير في الملامح او بنوع من النحنحة التي تفيد ما تفيده لفظةنعم.
فهل هذه من اللغة ؟ البسيكولوجي يقول نعم هي رد الفعل لمؤثر
خارجي . وهناك قضية المعنى (Meaning) وكيف يتكون في الذهن
وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفونيمات. ثم هناك قضية الفلسفة
والمنطق : هل تصلح اللغة ان تكون اداة لهما ام انها تعوق التفكير
الفلسفي لانها ظاهرة قديمة نشأت عند ما لم يكن هناك فلسفة؟ واخيراً،
وهذا اعقد المسائل اللغوية ، هل هناك فكر مجرد ، اي هل هناك فكر
او تفكير بدون كلمات؟ جرب ان تفكر واسأل نفسك: هل استطيع ان
افكر او ان ادرك الامور بدون كلمات ؟

ان هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض . واذا انت

ارجعت فهرس المكتبة اللغوية (اي الكتب التي تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبسيكولوجيا والتربية التي تبحث هذه القضايا ... ولكننا نحن لا نعيرها شيئا من اهتمامنا. وعلماء اللغه يحاولون ان يجدوا لهذه الاسئلة اجوبة مقنعة. وتراهم في شبه تنافس علمي مع البسيكولوجيين الذين يقولون ان اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية فلسفية، اذ ان علمها يقع في علم البسيكولوجيا. يقول علماء البسيكولوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم في القرون الثلاثة الاخيرة ان تحلوا مشاكل اللغة ولم تفلحوا فاتركوها لنا الان[1]

الحقل اللغوي الصرف

ومن الناس من ينصرف الى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر الى الملابسات الاجتماعية والفلسفية والبسيكولوجية. فيحصر همه في وصف اصوات اللغة واحكام التركيب ووضع المعجم (نعني مفردات اللغة) حسب اسلوب علمي دقيق.

يفرق دارس اللغة بين «لغة قديمة» «ولغة حية». فالقديمة هي التي

---

(١) من هذا القبيل كتاب الاستاذ كانتور J.B. Kantor : An Objective Psychology of grammar, Bloomington 1936

وصلتنا من نقطة معينة في الزمن حسب نماذج مـدونة . واعتمادنا في هذه الدراسة التقليد Tradition واحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تُدرّس في الجامعات ، او السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة في الالف الاول قبل المسيح . والعيب في هذه الدراسات ، في نظر عالم اللغة ، هو انها لا تعتمد النطق بل الكتابة ، والكتابة غير النطق. الكتابة رمز النطق . اما النطق الصحيح والتركيب الصحيح فهو الشائع على السنة الناس لا المدون في الكتب . ولكن هذا لا يعني اهمال درس اللغات القديمة او الانتقاص من قيمتها، كلا انما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت الينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغـة . اللغة الحية هي لغة الناس .

واذا فرّق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فانـه لا يفرق في اسلوب الدراسة . وهـذا الاسلوب ، الذي تمثله مدرسة لندن احسن تمثيل ، يعتمد اولا تسجيل اللغة واللهجة المنوي درسها . فيؤتى بأناس يعتقد عالم اللغة انهم خير ممثلين لتلك اللغة . فيقرأون او يقصون او يتحدثون عن امر ما على رسلهم وبطريقة طبيعية . وفـائدة التسجيل هو ان الباحث يستطيع ان يردد على مسمعه لغة المسجلين مرارا وتكراراً وفي اوقات تحلو له.ثم يبدأ بدرس المدون حسب ما اصطلحوا عليه بالمراتب(levels) فهناك المرتبة الصوتية Phonological level اي ضبط دقيق لنظـــام

الاصوات اللغوية ، واختلاف النطق بالاحرف المصوتة ، وتسجيل أثر حرف في آخر ، وما الى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس التركيب ويعرف بالمرتبة التركيبية Morphological level وبكلامنا العادي : صرف اللغة ونحوها . ثم ياخذ بدرس معجمية اللغة Lexical level وهناك مرتبة اخيرة Semantic level أي المرتبة المعنوية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتجدر بنا الاشارة الى هذا العلم عند العرب . فانهم كالهنود والاغريق برزوا في هذا الحقل ، وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية . ولكن ، وهذا مما يؤسف له ، لم يعتبر لغويو العرب اللهجات ، ولم ينظروا الى اللغة أنها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطورة ، بل اقتصرت جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان ، وحرصوا على ضبط احكامها وقواعدها لكي لايجد التغيير اليها سبيلا . ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل بالجمود بل اللغة سيل جار Continuous flux

أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي

لعلم اللغة الحديث، كما وصفناه لك باقتضاب كلي في الفصل السابق، اثر عميق في تغيير نظرتنا الى اللغة ووظيفتها واثرها في الفرد. ويحسن بنا ايضاحا للامر وايجازا في البحث، ان نذكر على شكل نقاط اهم النتائج التي اسفر عنها هذا العلم، والتي كان لها نصيب في تغيير نظرتنا التقليدية القديمة :

(ا) ليس هناك لغة افضل من لغة
(ب) للغة مجرى
(ج) ليس هناك لغة رديئة واخرى جيدة
(د) لااعتبار للكتابة وقواعدها في علم اللغة انما الاعتبار للفظ
(هـ) اللغة اكثر من فونيمات
(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلهما
(ز) ان الوحدة الكلامية هي التعبير التام «الجملة»
(ح) ليس للغة كيان بدون الانسان

(١) ليس هناك لغة افضل من لغة

لقد اثبت علم اللغة الحديث ان اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها

كل مجتمع انساني . وهي ظاهرة انسانية لا علاقة لها بالآلهة ، ولم تهبط من عل ، بل نشأت من أسفل ، وتطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بنمو حضارته . وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة واخرى ، كأن يقول احدنا ان في الالمانية عبقرية لا نجدها في الافرنسية ، وفي الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجدها في التركية . لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع . وليست القضية قضية لغة افضل من لغة بل قضية حضارة ارقى من حضارة وحياة اغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة في اصوات اللغة كأن يقول احدنا ان في الايطالية اصواتا اعذب موسيقى من اصوات العربية . فالذي نعده نحن البض عذوبة في الصوت قد يعده الهندي الاحمر قبحا وخشونة ، وما نحسبه بيانا وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غموضا وتعقيدا .

ولا مبرر للقول بان مفردات لغة ما اكثر عددا من مفردات لغة اخرى اذ قد يكون عندنا نحن البيض للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها ، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بان هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة اخرى مخالفة ولكن فعّالة . وقضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة . فنحن نباهي مثلا ان للشيء الواحد عندنا اسماء عديدة ، وللفعل الواحد افعالا عديدة ، ولكن غيرنا يرى في ذلك اسرافا .

والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات اخرى . وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة اخرى ارقى . وهنا نكرر القول ان القضية ليست قضية شعب راق او شعب متأخر ، لانه عندما يرتقي الشعب ويتحرر افراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة ان تساير الحضارة بلسانها الخاص . قد يجد المجتمع نفسه مضطرا للتوليد والترجمة والاقتباس ، ولكن هذا لا يضير اللغة بل يزيدها غنى .

(ب) للغة مجرى

لكل لغة مجرى تجري فيه حتما . وهذا المجرى يتشعب الى مجار اخرى مختلفة . وكلما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغاير . مَن من عامة الناس يصدق ان الارمنية والايرانية والروسية والالمانية والارلندية واليونانية واللاتينية والانكليزية ، على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات وفي الصرف والنحو والاصوات واساليب التعبير ، نقول من من الناس يصدق ان هذه اللغات تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد ؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية ، فان العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحبشية تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد . ولا يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه المجاري تتشعب بدورها الى مجار جديدة . فمن اللاتينية تحدرت لغات حية هي الفرنسية والايطالية والاسبانية، وهذه بدورها ستنحل الى لهجات

متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الاخر بتماسكه ونموه .

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها الى اسفل فتلامس التربة وترسل في الارض جذورا تصبح اشجارا فتية فيما بعد . وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ اشجار جديدة . واذا قلنا ان اللغة تموت فانما نقصد بالموت التغير الكلي الذي يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذري في الحياة وفي الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول ان لغة اليوم مغايرة للغة أمس .

قد نستطيع بيسر ان نطيل حياة لغة ما باقامة سياج حولها من احكام شديدة وقوانين ثابتة ، وقد نقيم حولها هالة من التقديس ، وقد نضفي على ادبها مسحة من القدسية ، وجميع هذه تطيل في حياتها ، ولكن لا مفر من المحتوم : الموت . وكل حي يموت ، واللغة حية فهي خاضعة لهذا الناموس . أليس في عربيتنا الفصحى اليوم كثير من الممات؟

(ج) ليس هناك لغة رديئة واخرى جيدة

ولست ادري كيف سيتقبل العرب هذه النتيجة التي اسفر عنها علم اللغة الحديث . فاننا قد اعتدنا ان نعتبر الفصحى لغة جيدة والعامية لغة رديئة . وكذلك اعتدنا ان نحترم «السلطة العليا» في اللغة فنقول: قال قال فلان وورد في شعر فلان . ولكن علم اللغة يقول لا سلطة عليا

الا للناس ، وما يقوله الناس هو الصحيح . واذا كان صرف العاميـــة ونحوها يختلفان عن صرف الفصحى ونحوها فليس معنى هذا ان العامية خطأ أو لغة رديئة . هي خطأ بالنسبة الى الفصحى وليس بالنسبة الى ما يقوله الناس .

اللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها على اكمل وجــه ان في الفهم والافهام ، او في التعبير عن دواخل الناس بيسر وبدون اجهاد . ويعتبر علم اللغة كل كلام يخالف ما عليه الجمهور الشذوذ بعينه . وليس معنى هذا ان لا اعتبار للغات الكلاسيكية القديمة ، او ان ليس لها قيمة ، بل الامر عــلى عكس هذا ، انما تعتبر هذه القضايا قضايا تاريخية لها اوثق الصلة بتاريخ الشعب وبتاريخ لغته . ولكن اللغة الحية هي التي وصلت في مجراها الطبيعي الى النقطة التي نحن فيها ، وكما هي في النقطـة التي نحن فيها هي اللغة الصحيحة . فلو ان متحذلقا في مقهى مـــا نادى : «يا غُلام اجلبْ لِي قَدَح ماءٍ» بالاعراب التـــام ، ولو افترضنا ان السامعين لا يعرفون ان هناك لغة عربية فصحى معربة لكان رد الفعل عندهم : هذا الرجل لا يعرف كيف يتكلم باللغة الصحيحة اذ عليه ان ان يقول : «يا وَلد جيبْ مَيْ» او يـــا ولد هَات كـتّـباية مَي» (وفي العراق كلاس (glass) مي) هذا هو المألوف وهذا هو الصحيح .

ان قضية فصيح وغير فصيح لا تدخل في نطاق علم اللغة بل ينظر

اليها انها مسألة تاريخية سياسية بحتة . فالالمانية التي يتكلم بها اهل ورتمبورغ ،والالمانية التي يتكلم بها اهل الالزاس ، والالمانية السويسرية في نظر علم اللغة لغات مستقلة قائمة بذاتها حرية بالدرس والتدوين كما تدرس اللغة الالمانية الفصحى (لغة المسرح) التي ليست سوى لهجةلوثر التي ترجم التوراة اليها ليقرأها الناس رغم معارضة الكنيسة . وقد أعجب الألمان بهذه اللهجة المرنة السيالة القريبة الى قلوبهم فاعتبروها لغتهم الفصحى . ولو ان مترجم التوراة ، لوثر ، كان من الالزاس او من الغابة السوداء لاصبحت واحدة من هاتين اللهجتين لغة المانيا الأدبية .

اذن ارتقاءاللهجة الى مصاف اللغات الفصحى وقف على سلطة خارجية او على ظروف خاصة . ولكن علم اللغة الحديث لا يعترف بسلطة سوى سلطة الشعب . فلا يحق لنا مثلا ان نزعم ان لغة القرن الرابع افضل من لغة القرن الثاني او السادس ، ولغة الكتاب الاحمر احسن من لغة الكتاب الازرق . ما يقوله الناس ، وما يكتبه الناس ، هو الصحيح ، وسوى هذا فقضية تاريخية سياسية دينية .

اثار جون واليس (wallis)في القرن السابع عشر مسألة الفرق بين معنى will وبين معنى shall وشدد في التفرقة . وقد تابعهصرفيون من بعده ولكن مَن مِن ملايين الناس الذين يتكلمون الانكليزية يعرف الفرق

الدقيق بينهما ؟ واذا تعلم هذا في الصف فهل يفرق بينهما في لغتــه العادية اليومية ؟ يقول ادورد سايير في كتابـه «اللغة» ص ١٦٦ ـ ١٧٧ ان لفظة whom مهما حرص الناس على المحافظة عليها ، في طريقها الى الموت . ويعتقد سايير ان السؤال المغلوط به من ناحية قواعــد اللغة : who did you see سيكون الشائــع الصحيح ، وان الشكل الصحيح whom did you see سيكون موضع استغراب واستهجان بعـد قليـل . واكثر علماء اللغة يقبلون بنظرية سايير لانه اذا كانت اللغة للفهم والأفهام فان احسن لغة وافصح لغة هي التي تفهم وتفهم بايسر ما يكون مـــن الجهد .

(د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في اللغة ، انما الاعتبار للفظ

ليست الكتابة من جوهر اللغة . اللغة اقدم من الكتابة ، والكتابـة عرض . اللغة مجموعة اصوات لغويـة ، والكتابة رمـوز لهذه الاصوات شأنهـــا في ذلك شأن رموز قطعة موسيقية . الرموز الموسيقية ليست الموسيقى . وقد تكون رموز الكتابة حروفا لاتينية او عربيـة او هندسية شكلها اجمل من شكل الحروف الحاضرة ، فقد نرمز مثلا الى الفونيم ـ ن ـ بشكله اللاتيني n او بصورته الكتابية في اللغة الصينية او بشكل هندسي موضوع لا فرق في ذلك كله شرط ان يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصطلح عليها .

ونمثل لك على صحة هذا – من ان الكتابة عرض واللفظ جوهر – بمثال من لغتنا العربية . فمن المقرر المعروف ان كتابتنا العربية غير المشكلة اشبه بهيكل عظمي للكلمة لا حياة له الى ان يسبغ القارىء عليه حياة باضافة الحركات واخراج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، الى حد ما ، على جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الخالية من الحروف المصوتة . خذ مثلا جملة «من علمني حرفاً صرت له عبدا» فانها مجموعة حروف صامتة لا يمكن احد الناس ان يقرأها ما لم يكن يعرف مسبقا انها كيت وكيت في اللفظ . ويدرك القارىء هذا الامر بوضوح اذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فانها تكون هكذا :

mn 'lmni hrf srt lh 'bd

وظاهر ان كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، انما يستطيع العرب قراءتها لانهم يعرفونها مسبقا . اذن الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين الفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسنا ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني ، وقد يكون اصطلاحا غير موفق كما هو في الكتابة الصورية ، او كما هو في الحرف العربي الخالي من الحركات .

ويجب ان نلاحظ ايضا ان اللغة لا تعرف الجمود ، فهي ابدا في تغير مستمر بينما الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك نرى فرقا عظيما بين الكتابة واللفظ ، ذلك لان اللفظ يتغير ولكن محافظة الانسان على

شكل الكتابة تجعلها تتسكع في المؤخرة . فـــالانكليزي يكتب laugh ويلفظ laf ويكتب through ويلفظ thru وكذلك الافرنسي فانه يكتب ils mangent ويلفظ il manj وعندما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة . ولـكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، عندما يدرك كل انسان ، وليس علماء اللغـــة فقط ، ان الكتابة عرض واللفظ جوهر . وهذه القضية ، بالنسبة الينا نحن العرب ، امر يجب ان ندركه على وجهه الصحيح لان حرفنا من اعقـد مشاكل اللغة .

يأخذ علماء اللغة المعـــاصرين على الصرفيين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقياسا للغة فجاءت اكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وافهام . ولقد فات الصرفيين القدماء ان المكتوب محنط ثابت وان اللغة جسم حي نام متطور . وكل قانون مبني على المحنط الثابت يؤدي الى نتيجة محتمة : فرق شاسع بين المكتوب والمقروء .

الصرفي يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ولكنه في عمله هذا يشبه رجلاً يضع سياجا من قصب في وجه دبابة من فولاذ ؟

(ه) اللغة اكثر من فونيمات

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيمات ، وليست اللغـة

رموزا كتابية . هذه من اللغة ، وجزء هام من اللغة ، ولكن اللغة فضلا عن هذه ، حياة . فاننا عندما نتكلم لا نتفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون احساس او شعور كآلة ميكانيكية تردد اصواتاً لا حياة لها . كلا ، بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الانساني الذي يضفي على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال .

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدته هو ذاته ؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها انت لنفسك ثم أصغ الى ناظمها يقرأها فانك تجد فرقا عظيما بين قراءتك اياها وبين قراءة الشاعر . الفرق في العنصر الانساني . فاننا عندما نتكلم نرفق كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الاحساس والعاطفة والصوت المنخفض احيانا والقوي احيانا اخرى ، والنغم ، والنبرة ، والاشارة الخفية باليد ، وبانفعالات تظهر في ملامح الوجه . واحيانا نتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية . ثم اننا نخاطب الطفل بلغة وبنغم يختلفان عن لغتنا ونغمنا عند كلامنا مع الرئيس والصديق او الحبيب او الخادمة . هذه الاضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة انها من اللغة . واذا كنت في شك من ذلك - من انها جزء من اللغة لا ينفصل عنها - نمثل لك بمثلين من الحياة : المسرح وقراءة الاولاد في قاعة الدرس .

اذكر اني شاهدت رواية تمثل على مسرح من مسارح لندن

اعجب بها الجمهور الى حد ان الرواية ظلت تمثل مدة سنتين . واذكر اني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة ثمن النسخة شلن . ولا اظن اني استمتعت بقراءتها ولا اخذت بما فيهامن احاديث ونكات، من جنون وفلسفة ، من كذب وصدق ، من رياء واخلاص . ولكــن شعرت شعورا يختلف تمام الاختلاف عندما شاهدت الرواية عــلى المسرح . استمتعت كثيرا وضحكت كثيرا وفكرت كثيرا وتأثرت كثيرا. ولماذا ؟ ذلك لانني عندما قرأتها لم ألمس العنصر الانساني ، امـــا على المسرح فاشخاص الرواية احياء يتكلمون وفي كلامهم حياة ، واحيانا كثيرة لم يتكلموا ، ولكن الجمهور كان يقرأ ، ويقرأ بوضوح ، ما يجول في عقولهم وقلوبهم من افكار وعاطفة . كانت عيونهم وملامح وجوههم وحركات اجسادهم تتكلم . ليست اللغة فونيمات فقط ، للغة حياة وهي العنصر الانساني .

هل دخلت غرفة درس واصغيت الى الاولاد يقرأون؟ هنـــالك معلمون ومعلمات ادركوا ان القراءة الفعالة هي التي يكون فيهـــا العنصر الانساني ظاهرا قويا مؤثرا ، فيطلب المعلم او المعلمةالى التلاميذ ان يرفعوا الصوت هنا وان يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن، هنا استعطاف وهناك طلب، وفي جميع هذه الحالات يجب ان يظهر المعنى بواسطة اضافة العنصر

الانساني الذي لا تراه في السطر امامك . ومما يؤسف له ان في مدارسنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من الترديد الميكانيكي وعلى نغم واحد مزعج من اول الصفحة الى آخرها .

(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلهما

كثيراً ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغة او رموز . وقد تُثار القضية بشكل آخر : اليس الفكر واللغة وجهين ، او مظهرين ، لعملية بسيكولوجية واحدة ؟ واكثر ما تثـــار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبسيكولوجيا . وللعلماء فيها آراء مختلفة واحيانا متناقضة . ومما يدعو الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم : نعم هنـــاك فكر مجرد بدون رموز ، او لا ، ليس هناك فكر مجرد بدون رموز . وظـــاهر ، الى وقتنا هذا ، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلباً او ايجاباً . فان كثيرا من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر كما نفهم اللفظة بمدلولها العـــام . فانني عندما اقول : « نمت الليلة نوما هانئا » فانني لا اعبر عن الفكر انما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بهـــا . فكأن اللغة مولد كهربائي ضخم يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة او لتحريك «ضرّابة» جرس كهربائي صغير .

الواقع هو ان مفردات اللغة ترمز الى فكر . كل لفظـــة تشبه

« كبسولا » يتضمن فكرة او صورة ذهنية يرسّخها الاختبار في العقل .
فعندما نقول، في الجملة التي استشهدنا بها آنفا ، « نمت » فانها ترمز الى
حدث او فعل يعرفه الاخرون بالاختبار، وليس من الضروري ان نفسر
النوم وعملية النوم . وعندما نقول « الليلة » فانها تنقل الى السامع فكرة
او صورة معينة ، وكذلك عند قولنا « نوما هانئا » . فمن هذه الجهة نجد
ان جميع الفِكَر او الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة.
ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن ان يكون هناك فكر او صور او حقائق
في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة، او ليست متلبسة برمز، اي بصوت
لغوي . خذ مثلاً الحقائق الرياضية والحقائق الطبيعية فان لهـــا وجوداً
ذاتياً بقطع النظر عن الرموز التي تشير اليها . ولكن يُشك كثيرا فيما
اذا كان الانسان يستطيع التفكير الرياضي، او حل المعادلات الرياضية
او فهم حقائق الطبيعة بدون رموز . فهذا ناموس الجاذبية كان موجوداً
قبل ان تتلبس الفكرة برمز لها ، اي لفظة « جاذبية » وحقيقة الماء من
انه مزيج من عنصرين بمعادلة معينة كانت قبل ان نضع له الرمز العلمي
« H_2O » ولكن مما لا شك فيه هو ان اللغة تسهل الفكر ، او كما كان
يقول استاذنا سابير (Sapir) اللغة طريق ممهد او اخدود كالاخاديد التي
تراها على سطح اسطوانة تمهد وتحدد السبيل للابرة لتمر فيـــه لتردد
الصوت . فاللغة تسهـــل الفكر وتساعـــد علـــى نمو الفكر .
ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها .فالتفاعل بين اللغة

والفكر امر واقع .أن ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح او غير الواضح ، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبس رمزا لغويا ، اي ما لم تُضمَّن الفـــكرة في « كبسول » لغوي . عندها نشعر ان الفكرة المولودة جديدا قد اصبحت ملكا لنا واصبحت تشكل جزءا من تفكيرنا .

(ز) الوحدة الكلامية هي التعبير التام (الجملة)

تشبـــه اللغة نظاما هرميا معكوسا ، اي قائما على رأسه الاعلى . وهـــذا الرأس الدي يرتكز عليه الهرم المعكوس يمثـــل الاصوات في اللغـــة اوالفونيمات . وعلى الفونيمات تقوم مركبات الفونيمات اي الكلمات ، وفوق الكلمات طبقـات تصنيف الكلمات : اسماء ضمائر افعال ... الخ. ثم تأتي الجملة فوق طبقة الكلمات. الوحدة الكلامية هي التعبير التام الجميل . ومن هنا كان اختلاف علماء اللغة في اقسام الكلمة ، فمن قائل هي ثلاثة او اربعة او ستة او اكثر .

ان هذا التحليـــل من صنع الفلاسفة . واول من قـــام بهـــذا التحليل الذي يشبه الهرم المعكوس الاغريق والهنود. ولكن الانسان القديم الذي لا يميل الى الفلسفة يعتبر التعبير التـام الوحدة الكلاميـــة ، فلا تجزئة ولا تجريد . اللغـــة استمرار (Continuum) . وفي كثير من اللغات لا تستطيع ان تجزّىء الكلمة او العبارة الي عناصرها

بل هي وحدة لا تتجزأ. يستشهد الاستاذ سابير[1] بكلمة واحدة من احدى لغات الهنود الحمر :

Wii - to - Kuchum - punku - rugani - yugwi - va - ntu - m

ومعناها : هؤلاء الذين سيجلسون لتقطيع بقرة سوداء بالسكاكين. وتحليل هذه الكلمة الى العناصر التي تتألف منها امر لا يخطر للهنود الحمر ببال . الجملة المفيدة عندهم تعبير غير قابل للتجزؤ . انما نحن الذين نُعنى بدرس اللغة درسا تحليليا نقسم اللغة الى طبقات . ولكن اللغة في واقعها الاجتماعي وحدة تعبيرية لا تقبل التجزئة .

ليعتبر القارىء ماذا يترتب على هذه النظرة من وجوب اجراء انقلاب اساسي في طريقة تدريس اللغة . يجب ان يكون التوكيد على الجملة ، على التعبير التام المفيد . هذا هو الوحدة اللغوية لا الفونيم او مركبات الفونيم .

(و) ليس للغة كيان بدون الانسان

وهذه حقيقة لا تحتاج الى اقامة دليل ، فانها اقرب الى البديهيات منها الى الامور التي تتطلب البرهان . فالبابلية ، مثلا ، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الادنى ، وكانت كتابتها محترمة

---

(١) Edward Saptr : Language, p. 31

متبعة في اقاليم عدة ، وخلفت آثارا كتابية تتسع لوضع معجم كبير .
ولكن اللغة البابلية ماتت لان الذين كانوا يتكلمون بهـــا انقرضوا او اندمجوا في حضارات اخرى ، لان لا كيان للغة بدون الانسان .

يترتب على هذا القول نتائج بعيدة الاثر ، وابعدها اثرا اعادة النظر في فلسفة النحو المبنية على فكرة العامل-العامل اللفظي والعامل المعنوي- فقالوا مثلا ان سبب الاعراب العـامل فالرفع والنصب والخفض لا يكون الا بعامل ، وسبب المنع من الصرف علة من العلل، وسكون لام الفعل في مثل « اكلت واكلنـــا » لاتصاله بضمير صحيح. بكلام آخر عزوا هذه المظاهر اللغوية لاثر كلمة في كلمة. فان « إنّ » تنصب المبتدا وترفع الخبر ، وكان ترفع المبتدا وتنصب الخبر . فكأن للكلمة سِحرا .

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الصرفيين والنحويين لم يقبلوا بهذا المنطق فان ابن جني في « خصائصه » يقول ما معناه ان الرفع والنصب والجزم مرده الي المتكلم نفسه لا لشيء غيره، اي ان الانسان هو العامل الاول والاخير في عملية النطق . وقد الف مفكر عربي ، ابن مضـــاء القرطبي ، كتابا في الموضوع هذا سماه « الرد على النحاة » حاول فيه ان يدحض المنطق الذي كان يتمسك به النحاة ، فانه يقول ان العـامل هو الانسان ذاته . ليتصور القارىء ماذا يترتب على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة . فعوضا عن ان نقول للتلاميذ في اعراب « العـلم

نافع » العلم مبتدا مرفوع بالابتدا (عامل معنوي) نقول العرب تقول هكـــذا ولا تعليل آخر . وفي جملة « ان الطقس جميل » الطقس منصوبة لان العرب هكذا قالوا وكفى .

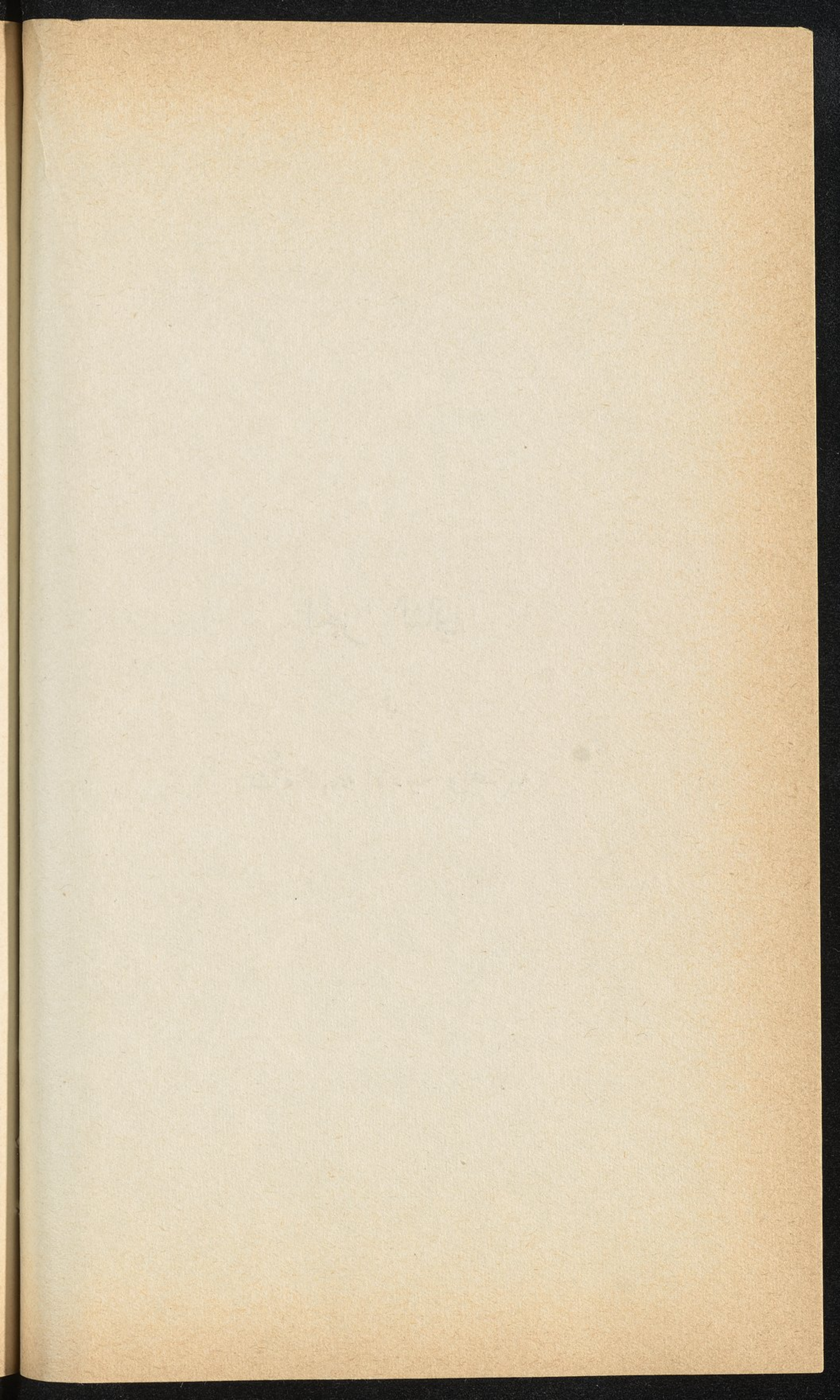
واني اذكر بهذه المنـــاسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الاستاذ (Firth) من جامعة لندن عنـــدما كنت احضر مجلس تعليمه Seminar فانني كنت اطلب جوابا عن « لماذا ؟ » « ما السبب ؟ » فكان يجيبني الاستاذ : «السبب بسيط جدا : الانسان ! واي تعليل آخر هو حدس وتخمين او تقوّل في امور لا نعرف لها سببا . »

اللغة من الحيـاة الانسانية وللحيـاة الانسانية ، وبدون الانسان لا كيان للغة ، فان عاش عاشت وان مات ماتت .

الجزء الثاني

في

نشأة اللهجة الادبية والمحكية



لغة ولهجة

ما الفرق بينهما ؟ وقد يعجب القارىء لهذا السؤال ، فان الفرق عنده واضح ظاهر . ولكن على ضوء علم اللغة ليس الفارق بينهما بالامر الواضح الظاهر ، اذا لا يفرق علم اللغة مبدئيا بين لهجة dialect ولغة language literary . كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها ، بنظامها الصوتي وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير .

وقد يعترض احد الناس على هذا الزعم بقوله ان الفرق بين لهجة ولغة هو في الادب . اللغة هي التي لها ادب . اي ان الادب مقياس للتفرقة . وهذا الزعم مردود ، فان لهجات الزنوج والهنود الحمر ولهجات الاقوام المتمدنة لها ادبها : شعرها ونثرها وقصصها وامثالها واساطيرها واغانيها . وقد يختلف هذا الادب في غناه الروحي والعقلي والجمالي عن آداب الشعوب التي خطت خطوات واسعة في عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم ، ولكن ذلك راجع لاثر الحضارة في الاجتماع . هذه الاقوام التي تتكلم لهجات لا يروق ادبها لنا اذا اتيح لها ان تأخذ بقسط من الحضارة فان هذه الاداب تتغير في روحها ومادتها وشكلها .

وقد يقول آخر : اللغة هي التي تغاير لغةاخرى باصواتها وبمفرداتها وبتراكيبها مغايرة لا يستطيع معها ان يتفاهم زيد وعمرو. اما اذا كانت الفروقات في الاصوات والمفردات والتركيب من النوع الذي يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فان هذه تحسب لهجات . اي ، بكلام آخر ، يضع صاحبنا التفاهم مقياسا للتفرقة بين لهجة ولغة . ولكن هذا الزعم يسقط من تلقاء نفسه اذا اعتبرنا مثلا لهجة اهل البندقيــة ولهجة اهل صقلية ، فانهما لهجتان (لا لغتان) ايطاليتـان ، ولكن اهل البندقيـة لا لايفهمون اهل صقلية ولا اهل صقلية يفهمون اهل البندقية. التفاهم بينهما غير ممكن . وقل مثل هذا في اللهجات الرومانية اي الايطالية والفرنسية والاسبانية فاننا نسميها لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع التاريخي لهجات لاتينية . واذا اجتمع ايطالي بأفرنسى فان التفاهم بينهما ليس مستحيلا . والامر كذلك في اللغات الجرمانية مثل الالمانية والهولندية والنروجية والدنمركية فانها تحسب لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع لهجات والتفاهم بين هذه الجماعات امر ممكن . والعربية والعبرية والسريانية والحبشية لغات في نظرنا اليها ، ولكن التاريخ ينظر اليها انها لهجات تحدرت من ام واحدة . اذن قضية التفاهم لا يمكن ان تكون الفارق بين لهجة ولغة.

وقد يقال لنا اخيرا ان الفارق بين لهجة ولغة هو ان اللهجة تقهقر

وانحطاط لغوي من لغة فصحى. وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديما وحديثا. فانهم ينظرون الى العامية انها انحطاط وتقهقر. ولكن اثبتت دراسة اللهجات، وبطريقة لا يتسرب اليها الشك، ان اللهجة ليست تقهقرا ولا انحطاطا لغويا linguistic degeneration بل تطوراً وتقدما لغويا فرضتهما النواميس الطبيعية التي تتحكم بمصير كل لغة. وافضل دليل على ان اللهجات ليست انحطاطا لغويا هو كون بعضها سابقا في الزمن للغة الفصحى. خذ مثلا كَسْر حرف المضارع في العامية فاننا نقول « يِكْتُب يِشْرَب » ولكن كسْر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الادبية الفصحى، فكيف يحق لنا ان نعتبر هذه الظاهرة - كسر حرف المضارع - انحطاطا لغويا؟ ومما لا شك فيه ان لهجة الالمان في سويسرا والمانية الالزاس وورتمبرغ هي اسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة المانيا الفصحى - او على الاقل لا علاقة لها بها - فكيف يحق لنا ان نقول ان لهجة سويسرا الالمانية ولهجة الالزاس الالمانية ولهجة الغابة السوداء هي انحطاط لغوي من لغة فصحى ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك؟

الحقيقة التي لا مراء فيها هي ان لا فارق جوهري بين لهجة ولغة

انما الفارق هو ان لهجة ما، ولسبب خارجي، او لظروف خاصة،

تعتبر لغة قومية رسمية ، بينما لهجة اخرى ، ربما افضل منها ، لا يعترف بها . فلو ان التوراة الالمانية مثلا ترجمت الى لهجة برلين لكانت لهجة برلين الالمانية الفصحى لا لهجة هانوفر . اذن القضية قضية « سلطـــة عليا » وقضية اعتراف بهذه السلطة . ما هي هذه « السلطة العليا » التي ترفع لهجة ما الى مصاف اللغات القومية الرسمية ، والتي تهمل لهجة اخرى فتعتبر لغة رديئة ؟

السلطة العليا

ان التاريخ يعج بالامثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما الى مرتبة لغة قومية رسمية . كنا نود ان نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبين كيف ارتقت هذه اللغة من لهجة وضيعة الى لغة ادبية . ولكن سرد حقائق التاريخ الجافة امر يرهق اكثر القراء ، فضلا عن ان هذا يقتضينا جهودا نحن بغنى عنها ، لان القارىء يستطيع ، اذا احب ، ان يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات او في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وآدابها . انما سنكتفي بذكر نبذ عن بعضها ايضاحا لما نحن بصدده .

تكون السلطة العليا في اللغة احد هذه العوامل :

(ا) عامل عسكري — سياسي

(ب) عامل ديني

(ج) عامل ادبي

(د) عامل اجتماعي طبقي

وليس من الضروري ان تكون السلطة العليا عاملا مفرداً ، اي

مكونا من عامل واحد ، بل قد يتداخل عاملان او ثلاثة في تكوين هذه هذه السلطة . وسنمثل لك على كل من هذه العوامل .

(١) عامل عسكري سياسي

وافضل مثال على ذلك اللهجات الروسية : التشكية والبلغـــارية والصربية . ان هذه لهجات روسية ، ولكنها اصبحت لغات رسميةمعترفا بها بفضل عامل سياسي او عسكري - سياسي . فانه عندما استقلت هذه البلدان عن روسيـا اصبحت هذه اللهجات الاقليمية لغـات قومية ادبية معترفا بها .

ثم اعتبر لغة اسبانيا الادبية . ما هي ؟ هي لهجة الطبقة العسكرية التي ابلت في حروبها ضد العرب ، ونعني بها الجيوش القشتالية . فقـد احتلت قشتالة ، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب ، مقامـــا عسكريا سياسيا في بلادها غير منازع ، واصبحت لهجة قشتالة اللغـة الرسمية للبلاد . والناس على دين ملوكهم . ولكنها في الاصل لهجـــة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية .

واعتبر كذلك لغة الرومان : اللاتينية . ما هي ؟ هي لهجة مـــن عشرات اللهجات التي كان يتكلم بها اهل ايطاليا القـــدماء قبل ظهور الرومان كامبراطورية عالمية . هي لهجة مدينة روما ، وبفضـــل مركز روما العسكري والسياسي اصبحت لهجة روما لغة الرومان القوميـة

الادبية ، وانتشرت في العالم بفضل الانتصارات العسكرية التي احرزها الجيش الروماني .

(ب) عامل ديني

وافضل مثال على فعل هذا العامل الديني نشوء اللغة الالمانية الفصحى واللغة العربية الفصحى . وجميعنا يعرف شيئا عن تاريخ الحركة الاصلاحية، وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية. فقد ارتأى لوثر بان افضل سلاح يستطيع به ان يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس الى لغة الناس ليقرأوه . فان اللاتينية لم تكن لغة الحياة ، ولم يستطع الناس ان يقرأوا كتابهم الديني . وبما ان لوثر كان من مدينة هانوفر فانه ترجم التوراة الى لهجة مدينته متحديا بذلك سلطة الكنيسة . وقد اعجب الناس بهذه الترجمة السلسة القريبة الى عقولهم وقلوبهم ، وعلى ممر الزمن اعتبرت اللغة الفصحى . ويسميها الالمان لغة المسرح .

وليس لنا ان نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية الى مرتبة ادبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، لان هذا من الامور المعروفة التي لا تحتاج الى تعليق . واللغة العربية مدينة بحياتها وباحتفاظها بشكلها القديم للقرآن .

(ج) عامل ادبي

والامثلة على كون السلطة العليا ادبية كثيرة، نخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية، لغة افلاطون وارسطو. فان هذه اللغة كانت اصلاً لهجة اهالي اتيكا في القرن الرابع ق.م. وظلت اللغة الرسمية الى القرن التاسع بعد المسيح. وعندما انتقلت هـذه اللهجة الى شواطىء اسيا الصغرى - ايونيا - اصبحت تعرف باللغة الايونية الرسمية، وهي التي كتب بها هيرودوتس. ان الذي فرض هذه اللهجة هو ما دُوِّن بهذه اللهجة من ادب وعلم وفلسفة.

ومن هذا القبيل لغة ايطاليا الحديثة فانها لهجة فلورنسا، اوبالاحرى اللهجة التي كتب بها ونظم بها ادباء وشعراء امثـــال دانتي وبترارك وبوكاتشيو.

(د) عامل اجتماعي او طبقي

وافضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية او بالاحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر. فان لهجة باريس (او مجتمع باريس) اصبحت المثال الادبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناشىء ان يحتذيه.

ومن هذا القبيل لغة الانكليز فانها على وجه التدقيق، اللهجـــة المحكية في المدلندز Midlands وهي مزيج من انكلوسكسوني قديم ولغة

النورمان وما اضيف اليها من مصطلحات علمية من لغـــة الاغريق والرومان ، وقد اصبحت هذه اللهجة لهجة لندن[1] والمجتمع اللندنى الراقي . وهى لهجة تعرف بـ«انكليزية الملك» ولا يغرب عن بالنا ايضا اللغة الروسية الادبية فانها لغة اهل موسكو ، ذلك لان اديبـــا نابغا ، ليمونوسوف ، كتب بها واعجبت كتابته اهل موسكو فاقتدى بها الكتبة والشعراء واصبحت فيما بعد اللغة الروسية الفصحى .

لقد ذكرنا هذه الامثلة لنوضح ان اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها . وتكون السلطة هذه عسكرية او دينية او طبقية . اما اليوم فما هي السلطة ؟ في كل امة من امم الارض جماعة ، وجماعة كبيرة ، تقول ان السلطة هي للتقليد Tradition هي للسلفية ، هي لغة التاريخ ، اللغة التي تحدرت الينا بشكل شعر او نثر وقصص واغان ، وكل خروج عن التقليد يعد خروجا على الاجتماع . واشد ما يكون الناس رجعيـة هو في نظرهم الى اللغة . ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر . فمن ذا يجرؤ في انكلـــترا مثلا ان يكتب Thru بدلا من Through و laf بدلا من laugh ومن يجرؤ في انكلـترا ـ هذا اذا اراد ان

---

(١) اما اليوم فان انكليزية لندن لا تعد المقياس الادبي في صفاء اللغة ان كان ذلك من جهة اللفظ ام من جهة التعبير ، وذلك لخليط الناس في هــذه المدينة . ويجب الا ننسى المنافسة بين مدينة واخرى . فان اهالي اوكسفرد وكمبريدج يعتقدون ان لفظهم هو افضل لفظ وتعبيرهم اصفى وابلغ تعبير .

يحتفظ بمركزه الاجتماعي الادبي ـ ان يقول I ain 't أو I aren 't عوضا عن I am not ؟ وقل مثل هذا في المانيا وفرنسا وفي كل بلد يعتز بلغته ويفخر بادبه . لا نعتقد ان الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن المنطق ، الفرنسي الذي اعطى العالم النظام المتري ، يتنازل يوما عن المعادلة ٤× ٢ + ١١ = ٩١ مستعيضا عنها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول ٩١.

ولكن رغم هذه الرجعية فان علم اللغة لا يعترف بسلطة عليا في اللغة غير سلطة الشعب . السلطة العليا هي للشعب تمشيا مع روح الديمقراطية ، التي تتغلغل في جميع نواحي الحياة . اللغة ليست لطبقة ارستقراطية ، وليست لغة لبلاط او لقصر او لبرج عاجي او لجماعة من الادباء او الشعراء ، انما اللغة للشعب ، وما يقوله الشعب هو الصحيح .

كيف تنشأ اللهجة

اما مؤرخو العرب وصرفيوهم فقد اشاروا الى اللهجات العربية اشارات عابرة[1] ، ولكنهم لم يحاولوا الاجابة عن السؤال : كيف نشأت؟ فقد تكلم الكسائي ، تلميذ الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الجاحظ كثيراً من النوادر اللغوية التي تعكس لحن العامة وعجمة بعض الناس . وتكلم ابن خلدون عن «فساد الكلمة» « ولغة الامصار » وتكلم غيره عن « لغات فاسدة » وعن « الرطانة » « والعجمة » . ومنهم من اشار اشارات دقيقة الى لهجات وقرنوها باسماء تميزها : كشكشة اسد ، وعنعنة تميم ، وطمطمانية حمير ، وعجعجة قضاعة ، وفحفحة هذيل ، وقطعة طيء ، وغيرها كثير[2] .ولكن احداً من القدماء لم يدرسها . وعلى دارس اللهجات العربية القديمة ان يبدأ بالاختلافات في القراءات المتبعة في قراءة القرآن ، وبجمع النتف

---

(١) وقد جمع هذه الاشارات العابرة مستشرق الماني اسمه Johann Fueck في كتاب له نقلة الى العربيه الدكتور عبد الحليم النجار «العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب » القاهرة ١٩٥١ مطبعة دار الكتاب العربي .

(٢) الخصائص لابن جني ص. ٤١٠ - ٤١٢ وعنه اخذ السيوطي في المزهر ص ٢٢١ - ٢٢٦ .

الباقية في ثنايا كتب الادب (ملاحظات الجاحظ مثلا) وبجمع الملاحظات المعجمية ، ومتى تم جمعها يتبين له ان الفروقات بين هذه اللهجات ليست يسيرة، بل تتناول نواحي لغوية عديدة على الصعيد الصوتي Phonolgical level والصرفي النحوي Syntactical والمعجمي Lexical .

وجل ما يفهم من كلامهم ان اللهجات العربية هي انحطاط لغوي linguistic degeneration . فهم من هذا القبيل ينتمون الى المدرسة التي تقول ان اللهجة انحطاط لغوي . وقد اشرنا سابقا الى فساد هذا الرأي ، وقلنا ان علم اللهجات قد اثبت بطريقة لا يتسرب اليها الشك انه ليس ضروريا ان تكون اللهجة انحطاطا من لغة فصحى ، فقد تكون اقدم منها في الزمن، او قد تمثل تطورا وتقدما لا انحطاطا. ولا يمكن الاخذ بالرأي القائل ان نشؤ اللهجات مرده الى خروج العربية من موطنها الاصلي واحتكاكها بلغات اخرى. ولو كان هذا هذا فكيف نعلل نشؤ اللهجات في البلاد العربية ذاتها حيث ظلت الفصحى على عزلتها ؟ اذن علينا ان نهمل هذا الزعم وان نفتش عن سبب نشؤ اللهجة الحقيقي . ونحن نعتقد ان في مقدمة الاسباب ثلاثة عوامل : (ا) المغايرة الفردية (ب) اتساع الرقعة الجغرافية (ج) احتكاك لغة بلغة اخرى .

(ا) المغايرة الفردية

لقد اثبت لنا علم اللغة ان لكل انسان لهجته الخاصة ، وان هناك لهجات في اللغة بقدر ما هناك من افراد

يتكلمون هذه اللغة ! وهذه اول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة . يقولون لنا ان المجتمع الذي يتكلم افراده لغة واحدة لا وجود له . واذا ابديت شكا في ذلك ادخلوك الى مختبر الفونتيك وقالوا لك اجلس امام هذه الالة المسجلة وتلفظ بهذه العبارة : ما اجمل الطقس . ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعال سجلها لنا مرة اخرى. ثم يتركونك تقابل بين تسجيلك الاول والثاني . وستجد لنفسك فروقا . ولكنها فروق لا تستطيع الاذن تمييزها ، انما الآلة تستطيع. واذا اصررت في المعاندة ادخلوك الى غرفة مظلمة وطلبوا من صديقين لك ، لا علم لك بوجودهما هناك ، ان يتكلما . فانك تعرف حالاً صاحب الصوت هذا هو فلان ، وصاحب الصوت ذاك هو فلان . فان هناك تبايناً ظاهرا في اللفظ وفي الشدة واللين والنبرة والنغم وربما في انتقاء المفردات وفي تركيب العبارات .

تعرف هذه الظاهرة في اللغة بالمغايرة الفردية . ولا تظنن ان هذه المغايرة تعمدية ، كأن يكون احدنا متحذلقا او متشدقا او متحرجا في لفظه، كلا، انما هذه المغايرة الفردية طبيعية عفوية. ولا نعلم السبب في ذلك كما اننا لا نعلم لماذا لا تشبه حبة قمح حبة اخرى في عرمة من القمح . ولا يولد ولد يكون صورة طبق الاصل لابيه او لامه . فكأن الطبيعة تكره الوحدة Uniformity وتميل الى المغايرة . وهذه المغايرة الفردية في اللغة ، جيلا بعد جيل ، تترك اثرا في اللغة . ونحن على يقين

ان العرب الاحياء يقرأون الفصحى على غير ما كان يقرأها الفصحاء في العصر الاموي. اما من جهة التكلم فظاهر ان لساننا العربي اليوم غير لسان العرب في الامس البعيد.

اخالك تقول: اذا، حسب هذا الزعم، تتجزأ اللغة بعد جيل او جيلين الى لهجات لا حصر لها. كلا. ذلك لان هناك، مقابل هذا الميل العفوي الى المغايرة الفردية، ميلا آخر نحو النورم[1]. ولكل لغة نورمها الخاص. فان افراد المجتمع، عن غير وعي، يميلون الى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة. قد يكون السبب في ميلنا غير الواعي للبقاء في النورم اللغوي خوفنا من ان نخالف ما عليه الجمهور، او قد يكون لاصلاح الخطأ الذي يحرص الاباء والجيل القديم على ان ينبهوا عليه الجيل الجديد، او قد يكون خوفا من الهزء والسخرية، او تهربا من ان نرمى بالتحذلق والتشدق والمغايرة لا لسبب سوى ان يقال عنا اننا نختلف عن الاخرين. وقد يكون هناك اسباب بسيكولوجية اخرى لا

---

(١) norm وهو النموذج العام، او القياس المشترك المتفق عليه في المجتمع، او العام المألوف او الطابع المميز. مثلا، هناك نورم للهجة اللبنانية التي لها خاصيات عامة مشتركة مألوفه يقبلها اللبناني. وللهجة المصريه نورم خاص و كذلك للهجة العراقية. فانك اذا سمعت لبنانيا او مصريا او عراقيا يتكلم قلت حالا هذا من لبنان وهذا من مصر وذاك من العراق، لان لكل لهجة نورمها الخاص. وسنستعمل لفظة نورم بشكلها الغربي تخلصا من صعوبة الترجمة، او الى ان يتفق العرب على ترجمة لها. ونحن، اذا عجزت اللغة عن الترجمة، فاننا لا نستنكف عن الاقتباس.

نعرف لها تعليلا . والاسباب لا تهمنا بقدر ما يهمنا تقرير الواقع وهو ان في كل لغة حية قوتين متضـــادتين الاولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal واخرى تشد به نحو المركز Centripetal . وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعا من التوازن اللغوي الذي يعرف بالنورم . وهذا ما يبقي اللهجة ضمن نطاق معين الى حين ، ومما يؤخر عملية التجزؤ السريع .

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية

ذكرناسابقاان للغةمجرى طبيعيا تسير فيه.وقدتحافظ اللغة على اصواتها وعلى صرفهاونحوهاوتركيبهازمناطويلا اذاظل المجتمع الذي يتكلم هذه اللغة مجتمعاصغيراقريبا من الموطن الاول، اواذاظل مترابطا متماسكا متجانسا منكمشاعلى ذاته،تشدافراده بعضهم الى بعض عوامل اقتصاديةوروابطروحية وامان مشتركة . ولكن هذا لا يعني انه لن يطرأ تغيـــير ما . كلا . بل يكون التغيير طفيفا وبطيئا لا يظهر اثره في الحال.اما اذا انحل المجتمع الى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التي كانت تربطه سابقـــاً ، او بسبب فقدانهـــا ، فان المجرى يميل الى التشعب والانقسام ، وعندها تظهر الفروقات اللغوي بسرعة ووضوح. ولكن يجب ان نلاحظ ان المهاجرين او النازحين عن اوطانهم الى اوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بمميزات لغوية قديمة قد تكون اندثرت وتلاشت في الوطن القديم كما

حدث في فرنسية مونتريال (كندا) فانها تحتفظ بعناصر لغوية تعود الى القرن السابع عشر ، وليس لها من وجود في لغة فرنسا الام . وكذلك في برتغالية البرازيل ، فان فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدها اليوم في لغة البرتغال الام . ونحن نميل الى الاعتقاد بان فقدان الاعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية اخرى ككسر حرف المضارع من الامور السابقة للهجرة العربية الى مواطن جديدة ، وليس نتيجة العوامل التي ظهرت بعد الفتح والاحتكاك بامم جديدة . ان اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئه الى مجار صغيرة مختلفة .

(ج) احتكاك لغة بلغة اخرى

عندما تدخل لغة جديدة الى بقعة جغرافية جديدة فانها لا تدخل الى فراغ لغوي . يجب ان يكون هناك قوم او اقوام يتكلمون لغات مختلفة . وفي هذه الحالة يحدث واحد من امرين : اما ان تتغلب لغة الفاتح فتحتل المرتبة الاولى وتصبح لغة البلاد الرسمية ، او ان تتغلب لغة المغلوبين بفضل تقدمهم في الحضارة ، او بسبب قلة افراد الجماعة العسكرية المجتاحة . وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء اماتت الاولى ام انتصرت الثانية . ان نتيجة هذا الصراع اللغوي الثقافي يظهر في اللغة . وافضل مثال على هذا احتكاك العربية بالارامية والايرانية .

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربي . ولم يكن من الصعب على

اللغة العربية، نظراً للتعرب ونظراً للقربى العرقية واللغوية بين الآراميين والعرب ، ان تفرض ذاتها بفضل العامل الديني والعسكري . وقد كان احتكاك العرب الثقافي باهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك ذلك في كثير من المفردات الثقــافية والزراعية والدينية التي هي من اصل سرياني[1] . فكان من الطبيعي ان يعتري العربيــة المحكية تغـير كبير في الاصوات والتراكيب والتعابير ، سواء اكان المتكلمون من العرب ام من اهل البلاد . اثر السريانية ظاهر في عربية سوريا ولبنـان المحكية وهذا امر طبيعي . فعندما يقول اللبنــاني او السوري او العراقي : « شفتو لاخوك او لخيك » فانهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراكيبها سريانية فصيحة . هكذا يجب ان يقال في السريانية . فكأنه يصعب على النـاس ان ينسوا نسيانا تاما ما يسميه علماء اللغة نماذج لغوية Speech patterns . وعندما يقول بعض اللبنانيين ena (انا) فانما يلفظون الضمير السرياني لا العربي . وقد نبه اكثر من مستشرق الى اثر السريانيــة في اللهجة اللبنـــانية السورية العراقية (موطن الآرامية القديمة) نخص بالذكر منهم العالم اللبناني المنسنيور فغالي الذي كان استاذ اللغــات الساميــة في جامعـــة بوردو في فرنسا . وفي كتبهم ما يغنينـــا عن

---

(١) راجع كتاب Siegmund Frankel: Die aramaischen Fremdtworter im Arabischen, Leiden 1886.

الاسباب[1] .

اما احتكاك العربية بالايرانية فلم يكن له من اثر في التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنتسبان اليهما. ولكن التفاعل الحضاري بين فارس والعربية ظهر في المقتبسات من المفردات التي تدل على نوعية التفاعل . فان العربية مثلا اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطبخ وفن الطبخ، وبالمنزل واثاثه، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها، وبالنظام الاقتصادي والعسكري . وكذلك اخذت الفارسية عن العربية اكثر مما اعطتها ، فان الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية ، غير انه لا اثر لتفاعل لغوي في التركيب (الصرف والنحو).

— ● —

قد لا ترضى عن هذه الاسباب التي تعمل على نشوء اللهجة : المغايرة الفردية ، واتساع الرقعة الجغرافية ، واحتكاك لغة باخرى . فقد تقول ، مثلا، اليست العناصر الانسانية في التغيير اللغوي اشد فعلا من العناصر الخارجية : الطبيعية والجغرافية ؟ او ليست هذه العوامل انسانية اي ان مردها الاخير للانسان ؟

ان علماء اللغة يسلمون بان للطبيعة اثرا في اللغة: المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها . ولكن هذا الاثر طفيف ويظهر في المفردات لا في

---

(١) راجع كتاب Mgr. Michel Feghale : Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, 1923, Paris.

لا في التركيب ، واللغة بتركيبهـــا . ولذلك ترى ان علمـــاء اللغة يميلون الى تعليل التغيير اللغوي عن طريق العنصر الانساني . هنـالك نواميس لغوية تتحكم بمصير اللغة، ولكن هذه النواميس ـ اذا صح ان نسميها نواميس ـ مردها في آخر الامر الى الانسان ذاته. هذه النواميس اللغوية هي : ـ

(ا) تغييرات في لفظ الحروف المصوّتة (الحركات)
(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة
(ج) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى
(د) تغييرات في التركيب

ويحسن بنا ان نأخذ كلا منها بشيء من الاسهاب.

(١) تغييرات في لفظ الحروف المصوتة (الحركات)

والحروف المصوتة اكثر الفونيمات تعرضـــاً للتغير، وهذا التغير يضفي علي اللهجة المحكية مسحة تجعلها مغايرة تمام المغـــايرة للغة الادبية. الا ترى الفرق العظيم بين حركات اللغة العربيـة المحكيـة، وبين حركات العربية الفصحى كما يجب ان تكون عليه عند قرائتك قراءة فصيحة؟ ان حركات العربية الاصلية ثلاث، قصيرة وهي a i u، وتمثلها الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة اذا تبعها الف وياء وواو فتصبح ā ī ū. ولكن الحركات في العربية المحكية اكثر من ثلاث. فانه فضلا عن هذه

فان هناك حركات مغايرة للفصحى : e ê ôy êy o ô وربما غيرها كثير . ثم اعتبر لفظ المقطعين ـَ وْ aw كما في يوم وـَ يْ كما في بيت ، فانهما في اكثر اللهجات العامية اصبحا ô و ê كما في yôm و bêt . واعتبر كذلك اختلاس حركة واطالة حركة اخرى خلافا لما هي عليه في الفصحى . ففي الفصحى نقول اكتب وفي العامية «كتوب» وفي الفصحى نقول قم وفي العامية «قوم» . وهل سمعت اناسا يلفظون ال â ô ؟ اصغ الى اهل الكورة يقولون «طروبلس وجوهل وعوقل» بدلا من طرابلس وجاهل وعاقل .

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية ، حتى انهم لم يضعوا لها لفظا خاصا بها ، ونعني قضية النبرة accent واثرها في الحركة من حيث الطول والقصر . فمن قوانين التركيب المقطعي للكلمة syllabic structure انه اذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الاخير منهما طويل الحركة ، ووقعت النبرة على المقطع الاول فان المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ كلمة Friday المركبة من مقطعين Frai - day (الاخير طويل الحركة). ولكن النبرة على المقطع الاول ولذلك اختلست حركة المقطع الاخير فاصبح قصيرا، ولذا يلفظها الانكليز Fraidi . ويقول اللبناني «كتوب» ولكنه يقول «كتب لو» . ان حركات اللغة تنتقل من جيل الى جيل بالتقليد . ولكن مهما

حرصنا على ان يقلد الجيل الجديد الجيـــل القديم تقليدا تاما في لفظ الحركات وفي النبرة فان هذه تظـــل عرضة للتغيير . وسبب التغيير هو العنصر الانساني : الشذوذ ، الفردية ، المغايرة ، الكسل، او امور انسانية اخرى نجهلها[1]

(ب) **تغييرات في لفظ الحروف الصامتة**

ويطرأ تغيير في لفظ الحروف الصامتة . فان حروف الثاء ـ خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدرزي في لبنان ـ فقد قيمته اللفظية الاولى th واصبح تاء ، وفي بعض كلمات سينا كما في « حيس وبحيس» عوضا عن حيث . واصبحت القاف همزة في بعض الأوساط ، وجيما مصرية في اوساط اخرى ، وقسم من اهالي بيروت يلفظونها كافا . وقد استبدل حرف الذال بالدال وبالزاي فيقـال « كزاب » « وكداب » . ويقولون « زلك والزي » عوضا عن ذلك والذي . والعراقي لا يفرق حتى في الفصحى، بين ض و ظ .

لماذا تحدث هذه التغـيرات ؟ ما الاسباب ؟ هل لان حرفا اسهـل

---

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة ، مثل مدرسة جامعة لندن ، ترفض رفضا باتا الدخول في «لماذا ؟» «ولاي سبب ؟» و «ما هو التعليل » يقولون ان عمل عالم اللغة هو وصف ما يجري او وصف ما هو واقع وليس له ان يفسر . هؤلاء يعرفون بالوصفيين descriptivists وعذرهم في ذلك اننا لا نعلم لماذا يحدث التغير .

من آخر ؟ هل للبيئـــة من اثر ، ام هو العنصر الانساني الذي ذكرناه سابقا ؟

ان علماء اللغة اليوم لا يهمهم تعليل الاسباب بقدر ما يهمهم وصف الواقع . فاننا نعرف مثلا قانونا صوتيا في اللغـات السامية لا يتغير وهو ان الثاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والتاء في السريانية فيقال:

ثاب (عربي) (شاب عبراني) تاب[١] (سرياني)

لماذا ؟ لا نعرف ونلاحظ كذلك في اللغات الهندوجرمانية قوانين صوتية[٢] ثابتة . مثلا نلاحظ ان الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف f يقابلها في اللاتينية او الاغريقية كلمات تبدأ بِ P ، فيقال :

father : Pater
five : Pente

لمـــاذا ؟ لا نعرف . انما يهمنا تقرير الواقع وهو ان الاحرف الصامتة ، كالاحرف المصوتة ، عرضة للتغير .

---

(١) اذن تاب الى ربه توبة ليس عربيا بل سريانيا . يجب ان يكون في العربية ثاب .

(٢) كالقوانين التي وضعها العالم الالماني Grimm وتعرف بقانون Grimm

(ج) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى

اما في المبنى فيكون التغيير نتيجة قلب مثل « اجا » بدلا من جاء ، « وفحر ووعق » عوضا عن حفر ووقع. او نتيجة زيادة مثل رجّال بدلا من رجل ، او نقصــان مثل مرة عوضا عن امرأة او نتيجة نحت مثل «جاب » المنحوتة من جاء ب « واصطفل » المنحوتة من اصطف ل .

ويحدث تغيير في معنى المفردات . وهذا امر معروف . فانك اذا اخذت المعجم العربي - مثل لسان العرب - وراجعت بعض المفردات لاخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومهــا الآن وبين مفهومها في الصدر الاول . اعتبر مثلا لفظ الباخرة والقاطرة والجريـدة والمذياع والهاتف والسيارة والمحرك والتيار .... الخ فانها وضعت لمعانٍ تختلف عن معانيها الآن . وما يؤسف له ان قاموسنا العربي لا يؤرخ لنا معنى الكلمات ، اي تطور المعنى على ممر العصور كما يفعــل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس اكسفرد للغة الانكليزية . فانـك اذا فتشت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت ان هذه اللفظــة مرت في اطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى يختلف قليــلا ، واحيانا كثيرا ، عن المعنى السابق .

(د) تغييرات في التركيب

واكثرها راجع لفقدان الاعراب . اذ من المعلوم ان في اللغـات

المعربة تدل علامات الاعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها. وقد يكون منشأ الاعراب حرية التصرف في تركيب الكلمات، اي تمكين المتكلم والناظم والمغني من ان يغير مركز الكلمات في الجملة على ان تقرن الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة. وذلك لأن العلاقة بين اجزاء الكلمة، في ابسط تركيبها، كانت تظهر في الترتيب، اي الفاعل اولا ثم الفعل ثم المفعول به. ولكن اذا اردنا، لسبب ما، ان نغير الترتيب وجب علينا ان نوجد علامات فارقة لاجزاء الكلمة لتدل على وظيفتها في الجملة. ففي العربية، وهي لغة معربة، نجد آيات كهذه:

انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ (قرآن، سورة فاطر الآية ٢٨).
ان الله بريء من المشركين ورسوله (قرآن، سورة التوبة، الآية ٣).
واذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه. (قرآن، سورة البقرة، الآية ١٢٤).

وفي جميعها، وفي امثالها، يتوقف فهم المعنى على علامات الاعراب. وعليه فليس من الضروري ان نحافظ على ترتيب موقع الكلمات. اذ قد يأتي الفاعل في آخر الجملة والمفعول به في اولها. ولكن اذا سقط الاعراب وجب التعويض عن فقدانه، ويكون التعويض ابدا في تغيير التركيب، اي بتغيير موقع الكلمة في الجملة. ففي الاولى، اذا اراد رجل ان يضعها بلغته كي يفهمها ولده الصغير، يجب ان

يكون التركيب على هذا النحو : العلماء ، مـــن بين العباد ، يخشون الله . وكذلك في عبارة أخبر خالد امينا .... فانه اذا سقــط الاعراب يصعب علينـا ان نميز بين المخبِر والمخبَر . ولكن في العاميـــة حلت المشكلة بتقديم الفاعل ابدا فنقول « خالد اخبر امين » .

ان اللغة ، كجسم حي ، تخضع للنواميس الطبيعية من حياة ونمو وتغير وموت . وهي شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع في جريانها الجهة التي تلقى فيها اقل مقاومة ممكنة (line of least resistance) واللغة كظاهرة انسانية تميل الى الأقتصاد ، بكلام آخر ، نستطيع ان نعمم القول بان اللغة في جريانها تسير :

من الصعب الى السهل

من الخشن الى الناعم

من المعقد الي الميسر

من المزخرف الى البسيط

ولذا تنشأ على ممر الاجيال لهجات مخالفة للغة الادبية التي نوقف سيرها الطبيعي بوساطة سياج شائك من الاحكام والضوابط . ونرغب في ختام حديثنا عن نشأة اللهجة ان نؤكد مرة اخرى ان اللهجة ليست انحطاطا لغويا كما يظن ، بل تطورا ونموا ومسايرة للحياة .

العامية لغة قائمة بذاتها ، حية متطورة

ان تعريفنا العامية بانها لغة قائمة بذاتها حية متطورة نامية ، كما يبدو في العنوان لن يرضي المجموع الاكبر منا . لاننا اعتدنا ان ننظر الى العامية انها لغة رديئة فاسدة تتميز باللحن والرطانة والعجمة ، فلا يمكن ان تكون حية متطورة نامية ، بل انها تمثل انحطاطا لغويا، تمثل الموت في اللغة لا الحياة . عندما انعقد مؤتمر الادباء العرب في بيت مري (ايلول ١٩٥٤) واثيرت قضية ازدواج اللغة واثرها في الادب ، برزت هذه النظرة ـ ان العامية ، ليست لغة بل لهجة فاسدة ـ احسن بروز . فانبرى الخطباء يدافعون عن الفصحى بمهاجمة العامية ، ووجه المهاجمة انها ليست لغة بل لهجة تتجسد فيها الركاكة والرطانة . وقد اتيح لي ان اتحدث للناس ، بواسطة الاذاعة ، عن قضية ازدواج اللغة واثرها في الفكر والتربية والاخلاق ، فانبرى صديق لي ، الاستاذ زكي النقاش يسفه الرأي . قال حفظه الله : ـ ... وحضرته اي (انيس فريحه) احق منا ومنكم ان يعلم ان العامية لهجة وليست لغة ، اذ ليس لها

صرف ولانحو، وانها في الحقيقة وليدة الجهل والتخلف...[1] المؤتمرون الادباء في بيت مري وحضرة الاستاذ زكي النقاش في الآداب انما يمثلون الفكرة الخاطئة الشائعة عند العرب : العامية ليست لغة بل لهجة رديئة . ولذا سنحاول في هذا الفصل ان نثبت اولا ان العامية لغة قائمة بذاتها ، ثانيا انها لغة حية متطورة نامية تتميز بجميع الصفات التي تجعل منها اداة طيعة للفهم والافهام ، وللتعبير عن دواخل النفس .

العامية لغة قائمة بذاتها

ان الفروق اللغوية بين العامية والفصحى التي ينظر اليها الناس انها فروق طفيفة جزئية ، او انحراف بسيط عن الفصحى ، هي ، من جهة نظر علم اللغة ، فروق اساسية جوهرية تبرر اعتبار العامية لغة قائمة بذاتها ، سواء أكان هذا في النظام الصوتي ام التركيبي ام الصرفي ام النحوي ام في المفردات والتوليد والاقتباس والقياس[2] . وسبب الخطأ في الزعم ان العامية والفصحى لغة واحدة راجع الى سهولة الانتقال من العامية الى الفصحى عند عامة المتأدبين الذين قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في اتقان العربية وقواعدها وشواذها . فاذا قلت

---

(١) مجلة الاداب البيروتية ، العدد ١١ ، السنة الثانية ، ص ٧٨

(٢) وقد نبه الى هذا الامر ابن خلدون فانه شعر ان لغة العرب في عهده ليست العربية الفصحى بل لغة مغايرة لها . المقدمة ـ طبعة بيروت ص ٥٠٨ ـ ٥١١ .

لاديب ، او لرجل قيض له ان يتم دراسته الثانوية (وليس قبل هذا) ان يغير الجملة العامية التالية : « مبارِح رحت للسوق واشتريت كيلو عنب بخمستعشر قرش او ارش ، » الى شكلها الصحيح كما تتطلبه قواعد الفصحى لاجابك على الفور : ذهبت امس الى السوق واشتريت رطلا عنبا بخمسة عشر غرشاً. الامر بسيط، وبسيط جداً ! ولكن الخطأ هو في اننا ننظر الى اللغة بمنظارنا نحن لا بمنظار الصغير الذي لا يعرفها، او بمنظار الاجنبي عنها . الصغير والاجنبي كلاهما يريان في الفصحى لغة اخرى مغايرة لها تمام المغايرة . اما نحن لاننا نستطيع ان ننتقل بيسر من العامية الى الفصحى ومن الفصحى الى العامية ، فقد ننسى ان عملية الانتقال لا تتم الا بعد ان نكون قد قضينا سنوات عديدة في تعلم احكام الفحصى .

لناخذ ولدا في المدرسة يحاول ان ينقل هذه الجملة ذاتها من العامية الى الفصحى . ولنسايره في عملية التغيير . ولن نحدثك عن الاختلاف الظاهر في نطق الحروف المصوتة في العامية والفصحى بل نكتفي بذكر الفروق الصرفية والنحوية والمعجمية .

(اً) على هذا الولد ان يعرف ان ـ راح ـ هذا الفعل الفصيح المسكين المغضوب عليه لا يستعمل في اللغة الكتابية لان الفصحى لسبب لست اعلمه رضيت عن « ذهب » ونقمت على « راح » فنبذته . فلا

يقال رحت الى السوق بل ذهبت . والتاء فيآخر الفعل يجب ان تكون مضمومة . عليه ان يتعلم هذا في المدرسة .

(٢) عليه ان يتعلم ان ـ مبارح كلمة عامية، والعامي قبيح رديء، يجب ان نستعمل كلمة اشرف او اجمل او الطف منها ، وهي كلمة « امس » . وقد يسألنا هذا الولد عدة اسئلة عن هذه الكلمة فيقول لنا مثلا لماذا هذه الكسرة في آخرها ؟ وقد يسألنا وما الاعتراض على لفظة « مبارح » فانها فصيحة ، فصيحة بالنسبة للهجة من قال « ليس من امبر الصيام في السفر » بتغيير لام التعريف الى ميم ، فان البارح اصبح « مبارح » ولكن معلم الولد ، تحت ضغط الرأي العام ، يقول له لا تستعمل هذه اللفظة بل استبدلها بامس ، ولا تنس انها مكسورة ! وبما ان اجوبته لا تقنع الولد فانه يتقبل ما يقوله المعلم له ويسكت على ضيم .

(٣) عليه ان يتعلم ان الفصحى تفضل«الى»وليس«ل» التي هي في الاصل الى ، وعليه ان يتعلم انها تجر الاسم بعدها (وليس دائما !) ولان لفظة سوق معرفة بأل فانها لا تنون . ثم انه يسأل ما معنى الجر ـ والجر عنده السحب ـ ويسأل عن التنوين فيقال له هو نون ساكنة في آخر الاسم فيلتفت ليرى النون الساكنة فلا يراها بل يجد مكانها ـٌ ـً ـٍ ! ويسأل هذا الولد عن التنوين وعن طريقة كتابته وعن الحكمة فيه . وقد

يقال له انه نوع من التنكــير ، او اعذار اخرى ، ولكني متأكد ان كل ولد يتقبل هذه على ضيم لانه لا يدرك هذه الفلسفة اللغوية المغايرة للغة الحياة ، فيسكت على ضيم .

(٤) وعليه ان ينتظر طويلا الى ان يكبر ، الى ان يصبح له من العمر ١٣ او١٤ او١٥ سنة حتى يتعلم قوانين التمييز، لان هذا الموضوع الصرفي لا يعلم في السنوات الاولى. عندما تعلمت قوانين التمييز وفهمتها حقا كنت في سن الشبــاب ، اذن لا يستطيع الولد ان يغير « رطل عنب » الى رطلا عنبا . ولكن قد يرأف به الاستاذ فيقول له : لا بأس من ان تقول « رطل عنبٍ » على سبيل الاضافة ، فيشكره على هــذا الرفق به .

(٥) وعليه ان يتعلم قوانين العدد المعقدة التي تظهر العربية الفصحى فيها على اقبح ما يكون من التعقيد اللغوي . انني متيقن من ان ٩٥٪ من العرب المتأدبين عندما يأتون الى ذكر العدد كتابة او خطابة عليهم ان يقفوا قليلا ليعيدوا القاعدة : هل هذا مذكر ام مؤنث ، هل هذا معرب ام مبني : هل هذا مفرد ام مركب ، هل المعدود منصوب ام مضاف اليه ... الخ . ويشهد الله انني انا الذي قضيت شطرا من حيــاتي في تدريس العربية توقفت قليلا عندما نقلت جملة « مبارح رحت للسوق واشتريت رطل عنب بخمستعشر قرش » الى الفصحى . هــل هي

خمسٌ او خمسةٌ او خمسةٍ ، عشَرٌ او عشْرٌ او عشَرةٍ ، وبعد هذا التفكير نقع في الخطأ الذي نحاول تجنبه !! وقد يسأل هذا الولد عن سبب التعقيد ، ولكن الاستاذ لن يستطيع ان يفسر له هذه المظاهرة لانها ترجع الى عصور سحيقة في القِدم عندما لم يكن هناك منطق ولا قياس .

(٦) واخيراً عليه ان يتعلم احكام المعدود - ايكون مفردا ام جمعا ، منصوبا ام مجرورا . وقد يجد له الاستاذ تعليلا . ولكنه يتقبل الامر ويسكت على ضيم .

بعد هذا لنا ان نسأل القارىء : هل الفروق بين العامية والفصحى طفيفة جزئية لا اهمية لها ؟ قد يشار الى المفردات في اللغتين ، العامية والفصحى ، على انها مشتركة بينهما . هذا حق ، ولكننا نريد القارىء ان يدرك حقيقة لغوية لا يتناطح فيها كبشا ماعز :

ليست اللغة مجموعة كلمات . تستطيع ان تتعلم مفردات القاموس الالماني او قاموس اكسفرد او لاروس ولكنك لن تستطيع ان تطلب الى خادم في برلين او لندن او باريس ان يأتيك بقدح ماء او رغيف خبز ، لان اللغة بتركيبها . التركيب جوهر اللغة ، وتركيب العامية يختلف في نواح عديدة ، فهما لغتان لا لغة واحدة .

ثم ان هناك دليلاً آخر على ان العامية لغة قائمة بذاتها وهو الدليل البسيكولوجي. يشعر عامة العرب ان لغتهم هي اللغة المحكيـــة وان الفصحى لغة رسمية. فهم لا يشعرون انها جزء من حياتهم بل انهم اذا تكلموا او صلوا او غنوا او غضبوا او شتموا فان اللغة التي يعبرون بهـا عن هذا كله انما هي العامية.

هذا فيما يتعلق بعامة الناس، ولكن ما قولـــك بخاصتهم؟ اذا طلب الينا ان نلقي كلمة في موقف رسمي او ان نحاضر، او ان نذيع كلمة، الا ترى اننا نعيد كتابة ما نكتبه مرات، ونعيد قراءته مرات، وقد يكون بيدنا قلم احمر «للرتوش» فهنا عبارة لا يرضى عنها زيد، وهناك كلمة قد يحتج على استعمالهـا عمرو، هنا ضمة بدلا من فتحة، وهنا كسرة بدلا من ضمة، وقد نشعر بشيء من الطمأنينة اذا استشرنا زميلا او طلبنا اليه ان «يحركها»! كل هذا لان الفصحى ليست لغة الحياة.

قد تقول: في العالم كله عندما يقف الواحد موقفا رسميا يحتاج الى «روتشة» لغته. هذا صحيح، ولكن الفرق بين عاميـــة الانكليزية والافرنسية وفصحى الانكليزية والافرنسية لا يقاس بالفرق الشاسع بين عاميتنا وفصحانا. نحن لا نعتقد ان هناك وجها للمقارنة.

العامية لغة حية متطورة

في كل امة مدرستان لغويتـــان: الواحدة تنظر الى اللغة المحكية

انها انحطاط لغوي ، وان اللغة الادبية هي الفصحى . وتحـاول هذه المدرسة فرض هذه الفصحى ، بشكلها الذي وصلت به الى الناطقين بها من نقطة معينة في الزمان والمكان ، على مجتمع بعد عن هذه النقطة ، او قل على مجتمع يسير مع الحياة فهو لا يعرف الجمود . والمدرسة الثانية تنظر الى اللغة المحكية انها نتيجة محتمة لمجرى اللغة او اتجاهها. فالعامية عندهم تمثل تطورا طبيعيا وتطورا نحو الافضل والاسهل، لا انحطاطا وتقهقرا كما يخيل لاتباع المدرسة الاولى . ونحن ندلل لك على صحة دعوانا ـ ان العـامية حية نامية متطورة ـ بذكر بعض الظواهر اللغوية التي نحسبها تقدما وتطورا :ـ

اولا فقدان الاعراب

والاعراب لا يتلاءم والحضارة. نحن نرى في الاعراب ، الاعراب في اية لغة ، بقية من البـداوة . قد يساعد الاعراب على الفهم ومنع الالتباس ولا سيما في المواضع التي فيها تقديم وتأخير في مرتبة المفردات كما يقع في الشعر والنثر الفني ، ولكن حكمه في ذلك حكم اية قرينة اخرى تساعد على الفهم.

ولا تعجبن فاننا لسنا اول من قال بان الاعراب زخرف لا قيمة له

في الفهم والافهام . اقرأ في مقدمة ابن خلدون[1] ص ٥٠٨ ـ ٥١١ واقرأ مقدمة ابن قزمان الاندلسي[2] تجد ان النقمة على الاعراب قديمة العهد.

ان فقدان الاعراب ليس انحطاطا بل تطورا مع الحياة . وها هم العرب نراهم قد اسقطوا الاعراب منذ الصدر الاول . وان صح الخبر عن ابي بكر انه كان يقول : « لان اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فالحن»[3] وان صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال «ارشدوا اخاكم» واذا صح ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ، فانه يمكن اتخاذ هذه دليلا على ان الاعراب لم يكن متمكنا في لغة الناس قبل ظهور الدعوة . ويروى عن الرسول انه قال « اعربوا القرآن . » ولا تظنن ان الناس اسقطوا الاعراب تعمدا ،

---

(١) طبعة بيروت، المطبعة الادبية، ١٨٧٩، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون: في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير . والفصل الاربعون : في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر .

(٢) لديوان ابن قزمان نسخة خطيه وحيدة في لنينغراد . وفي الجامعة الاميركية نسخة فوتوغرافية عنها. يحمل ابن قزمان في مقدمة الديوان حملة شعواء على الاعراب.

(٣) نقول ان ، ونخط تحتها ، لان الحديث ينسب الى كثيرين . فانه ينسب الى الشعبي ، راجع «الارشاد» لياقوت الجزء الاول ص ٢٦ . والغريب ان الفراء يروي حديثا عن ابي بكر يناقض الحديث السابق الذي نحن بصدده «وقال ابو بكر الصديق رحمه الله ان اعراب القرآن لاحب لي من حفظ بعض حروفه » راجع :

Paul E. Kahle : Cairo Geniza P, 116 (London 1947)

او خروجا على نورم اللغة ، او مشاغبة ، او شعوبيـة ، كلا ، انما سقط الاعراب من تلقاء ذاته، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية لان ليس له قيمة بقائية Survival value . ونحن نذهب الى ابعد ما ذهب اليه لغويو العرب فنقول ان اسقــاط الاعراب من لغة النــاس المحكية سبق نزول القرآن الـكريم ، غير ان القرآن الكريم نزل بلغـــة الادب والشعر والدين لذلك العصر ، ومن الطبيعي ، لا بــل من الضروري ، ان ينزل بلغة الادب والشعر والدين[1] ونعتقد ان المجتمع

---

(١) يعتقد بعض المستشرقين ان لغة القرآن المعربة مبنيـة على قوانين اللغة العربية النجدية البدوية كما تتراءى لنا في الشعر ، وان قواعد الاعراب وضعت في القرن الثاني. وقد جاهر بهذه النظرية مستشرق الماني عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذي انعقد في الجزائر ، واسمه كارل فولرز . ثم انه وضع نظريته هذه ، بعد تعزيزها بشواهد من القرآن ومن القراءات ، في كتاب معروف :

Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien (strassburg 1906)

وقد رد عليه شيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في

Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaït P. I ff (strassburg 1910)

ويحسن بمن يهمه هذا الامر ان يقرأ Paule E. Khale في :

(1) The cairo Geniza, PP 78-84

والنص العربي المعزو الى الفراء ص ١١٥ – ١١٦

(2) The Arabic Readers of the Koran (Journal of Near Eastern Studies, 8, April 1949, PP 65-71

(3) The Qur'an and the Arabiya (Goldziher's memorial pp.163-182)

الاسلامي الاول ، نسبة لاعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم، جهدوا ان يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية . يدلك على ذلك مبلغ الجهد الذي انفق في سبيل ضبط احكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي اصرار المقامات العليا على ان تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين . ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها امر طبيعي ، لا بل ضرورة ، لكل امة ناشئة . الدولة الناشئة بحاجة الي لغة قومية ، لان اللغة القومية من مقومات الأمة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين والى ما هنالك من مقومات .

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز ، انما نعترض علي فرض لغة تاريخية علي جيل بعدت حياة الناس فيه عن ذلك الجيل ، ونعترض علي المبدأ القائل بان قوانين اللغة من صرف ونحو واساليب ، لا تتغير ولا تتبدل « كشريعة مادي وفارس » وذلك لان اللغة تتغير ، شئنا ام ابينا .

ان كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والاغريقية والسنسكريتية . ويظهر ان الاعراب ميزة من مميزات اللغات القديمة . ولكننا اذا اخذنا اللغة عامة وجدنا ان الميل هو لاسقاط الاعراب. فمن اللغات السامية لانجد لغة معربة سوى العربية الفصحى.

قد تجد في هذه اللغة او تلك بقايا اعراب ولكن تستطيع ان تعمم القول في ان اللغات السامية (باستثناء العربية الفصحى لا المحكية) اسقطت الاعراب . وكذلك اسقطت اللهجات التي تحدرت من اللاتينية كثيرا من الظواهر الاعرابية ، وبقاء الاعراب في بعض اللغات الاوروبية ليس دليلا على قيمته البقائية انما هو دليل على الرجعية في اللغة . وها هي الانكليزية ، التي لم يبق للاعراب فيها من اثر كبير ، تعبر عن الفكر والعلم والفن بيسر ، ولو ان للاعراب ضرورة للفهم والافهام لبقي ولحافظت عليه جميع اللغات التي كانت معربة ، ولكن لكونه غير ضروري سقط . وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي . فهي من هذه الناحية حية نامية متطورة .

ثانيا التطور الصرفي والنحوي

ليس لنا ان نعيد هنا ما قلناه آنفا من ان العامية لغة مغايرة للفصحى في صرفها ونحوها وتركيبها ومفرداتها وبيانها .

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامية ونحوها وبين صرف الفصحى ونحوها .[1] انما نريد ان نؤكد ان صرف

---

(١) من يعتقد ان العامية لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المنسنيور ميشال فغالي استاذ اللغات السامية في جامعة بوردو

Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, paris 1923

العامية ونحوها يمثلان تطوراً وتقدماً . فاقتصار العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر ، وتصريف الفعل، واستعمال اسمي الفاعل والمفعول وصوغ المجهول واهمال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعدد اقل وغيرها كثير ، جميع هذه في نظرنا تمثل تطورا طبيعيا في اللغة وتقدما يتمشى مع الحياة . وليس على المرء الذي يشك في هذا الزعم الا ان يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة ليرى ان العامية لغة مستقلة لها صرفها ونحوها واساليبها [1] .

ونود ان نمثل على ذلك بناحية واحدة هي فكرة الزمن في الفعل .

ان الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الاوروبية شعروا - ولا يمكنهم الا ان يشعروا - ان فكرة الزمن في الفعل السامي غير محدَّدة تحديدا دقيقا كما هي الحال في اللغات الهندو - اوربية . ففي الساميات ترتكز فكرة الزمن عامة علي انجاز الفعل او اتمام الحدوث لا علي فكرة الزمن ذاته . فان كان الفعل او الحدوث قد تم فهو ماض وان لم يكن قد تم فهو حاضر . ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمنين باستثناء العربية (التي هي احدثها تاريخا وادبا)

---

(١) اكثر المؤلفين من الفرنجة : المان وافرنسيين وانكليز وايطاليين واوربيين ومن جنسيات غيرها ونستطيع ان نقول ان جل اللهجات العامية قد درست ودون صرفها ونحوها واساليب التعبير فيها

فانها استطاعت ، بفضل افعال مساعدة وحروف ، ان تتصرف بفكرة الزمن تصرفا افضل من بقية اللغات السامية . ولكن رغم هـــذا فان تحديد الزمن في اللغات الساميـــة يقصر عما هو عليه في الأنكليزية او الفرنسية او الالمانية .

ولكن العامية ، التي لم تخضع لاحكام الصرفيين والنحويين بل جرت على السنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي المحتم ، استطاعت ان تعبر عن الزمن وان تحدده تحديدا دقيقا . فان الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا ان جميع صيغ الازمان الاوروبية لها مماثلها في صيغ الازمان في العامية العربية ، وليس ذلك نقلا واقتباسا عن الفرنج انما مرده الى طبيعة الانسان عامة والى المشترك في تفكيره وتصوره[١] .

ثالثا خضوع العامية لنواميس لغوية طبيعية

ودليلنا الثالث على حيوية العامية وتطورها مع الحياة هو انها ، شأن كل لغة اخرى، تخضع لنواميس لغوية طبيعية ، بينما نجد ان الفصحى نسبة للسياج الذي احيطت به ، لا تخضع لفعل هذه النواميس . ولكن لغة الناس اذا افلتت من النطـــاق سرت مسراها الطبيعي واتجهت

---

(١) راجع كتاب فنالي ، المذكور اعلاه ، ص ٣ — ٨٠ حيث يبحث الفعل . وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدة من لهجة لبنان الشمالية . ولكن ما يصدق على هذه اللهجة يصدق على غيرها من اللهجات العربية المحكية الى حد بعيد

اتجاها المحتوم .

من هذه النواميس اللغوية الطبيعية - ولن نذكر لك جميعها ، لان هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع - ناموس الاقتصـــاد . الاقتصاد في اللغة مبدأ عام ، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة . اعتبر مثلا عدد الضمائر في الفصحى (١٤) وعددها في العامية(٨) ولماذا؟لان المثنى سقط والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع الى اول عهد الانسان بالعدد، وقد سقطت هذه الظاهرة من اكثر اللغات التي كان فيها مثنى لان ليس له ضرورة . كل ما زاد على واحد فهو جمع . واسقطوا جمع ضمير المؤنث . وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر احدث اقتصـاداً عظيماً في تصريف الفعل ، فعوضاً عن ان نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨ ، وفي الامر عوضا عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول : قوم قومي قومو

رابعا الاهمال والاقتباس والتحديد في المعنى

ودليلنا الرابع على ان العامية لغة حية نامية متطورة حرصهـا على اهمال (او اماتة) ما يجب ان يهمل ، واقتبـاس ما يجب ان يقتبس ، وتحديد ما يجب ان يحدد في معناه . فهي من هذه الناحية تساير الحياة. فانه في زمن كان الناس فيه يتلهون ببهلوانيات اللغة كان للاسد اسماء لا يحضرني عددها، وللناقة اسماء عديدة، وكان للسيف اسماء يصل عددها الى المئـــات ، وكان للعسل ما يقرب من السبعين اسما ، وكان للداهية

اسماء عديدة ، وعديدة جداً حتى قيـل : اسماء الدواهي من الدواهي !
وبطرس كرامه نظم قصيدة (أمن خدها الوردي افتنك الخال . . . .)
يكاد عدد ابياتها يقرب من المئة وكل بيت ينتهي بلفظ الخال ، وفي كل
بيت للخال معنى يختلف عن معنى الخال قبله، وكلمة بسيطة مثل «الرز»،
هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام، له في القاموس
اشكال عديدة :

« الأرُزّ والآرُزُ والرُزّ والرُّنزُ (بفك الادغام) وربما كان
الاصل الأروزُ بمعنى الانقباض »

اما في العامية فللاسد كلمة واحدة ، وللسيف كلمة واحدة، وللعسل
كلمة واحدة ، وانتقت العامية اسهل الالفاظ للرز ، والحمد لله على هذه
النعم !

والعامية تقتبس حيث لا معدى عن الاقتباس وذلك لتحررها من
القيود ولانعتاقها من وطأة التقليد ، ولافلاتها من تحكم المجامع اللغوية.
فقد ارتأت ان تاخذ لفظ التلفون كما هو في باقي لغات العالم ولم تقبل
بالمصطلح الذي وضعه مجمع فؤاد الاول للغة العربية . وقد اشتقت من
الاسم فعلا ، فيقولون «تلفن» وانا اوكد لك ان لا مجامع للغة في الاقطار
العربية ، ولا قوانين حكومة ، ولا سلطة اخرى على الارض تستطيع ان
تقضي على هذه اللفظة او ان تحل محلها لفظة هاتف او لفظة اخرى .

استعملنا في هذه الدراسة لفظة « نورم » بشكلها الغربي وفسرنا معناها العلمي المحدد[1] ولان نقلها الى العربية بلفظ واحد محدد المعنى والاستعمال امر عسير، على الاقل بالنسبة لنا، فقد ارتأينا ان تصبح هذه اللفظة « نورم » من مفردات علم اللغة. ونعلم ان بعض الخاصة لن يرضى عنها. ونعلم ان فلانا من مصر سيقترح ترجمتها كذا، وآخر من دمشق سيقترح ترجمة اخرى، فتنشأ مشكلة سياسية اجتماعية ويخسر العلم، ولكن العامة، عندما ترتقي فكريا، وعندما تالفها وتعرف معناها فلن تتردد البتة في قبولها، وتصبح كلمة نورم، وجمعها نورمات، من صميم اللغة العربية. ولِمْ لا؟ هل هي اقبح من الفالوذج والاسطرلاب والدرهم؟

وتحرص العامية على تحديد المعنى. وهذا ما يشكو منه كل من زاول الكتابة العلمية او الاجتماعية. للكلمات العربية معان عديدة، ومعان غير واضحة. والعلم يتطلب التحديد. خذ مثلا لفظة « درس » في القاموس واعتبر معناها المحدد في العامية. « عرف » معناها عرف، ولكن افتحها في القاموس. راجع لفظة « حوب » في القاموش وقل لي ما معناها؟ قد تقول هذا غنى في اللغة، واقتصار العامية على معنى واحد

---

(١) راجع ص١٠٤

فقر وانحطاط . اما نحن فنخـــالفك الرأي ونعتقد ان هذا من دلائل الحيـاة . الحياة لا تقبل الغموض والابهـــام ، ولا تتحمل الاحاجي والبهلوانيـــات . الحياة تتطلب البساطة والوضوح والحيـــاة تهمل ما قد مات .

خامسا العنصر الانساني في العامية يضفي عليها مسحة من الحياة

وقد اشرنا الى هذا عندما قلنا ان اللغة اكثر من فونيمات ، واكثر من كلمات ، واكثر من تركيب . للغة حياة ، وهذه الحيـاة هو العنصر الانساني . ان الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها كما تستطيعه العامية . والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله في العامية ، واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا قاسيـا خلوا من العنصر الانساني اللصيق باللغه.تصور علي المسرح فلاحا يتكلم الفصحى، او سكيرا يتكلم الفصحى او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى . او نجيب حنكش يقص اقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغه الزمخشري ، وسعيد فريحه في نكات يقصهـا بالفصحى ، او المجلات المصرية تنقـــل كلام «ابن البلد» الى الفصحى !

اثر زدواج اللغة في المجتمع

اثبتنا في الفصل السابق ان العامية لغةقائمة بذاتهـــا تختلف عن عن الفصحى في اصواتها وتركيبها ومفرداتهـا وتعابيرها . ويحق لنا ان نقول الان ان للعرب لغتين : فصحى معربة، وهي اللغة الادبية الرسمية المعترف بها ، وعامية غير معترف بها، وهي اذن في نظر الناس لغة رديئة او انحطاط لغوي . ولكن رغم هذا الزعم الخاطىء فانها - العامية -لغة ، لغة الحياة اليومية .

وعامة العرب لا يدركون ان ازدواج اللغة مشكلة فكرية تربوية بسيكولوجية لها اثر عظيم في حياتنـا . ونحن لا نلوم العرب اذا هم لم يبـالوا بهذا الامر ، فانهم في شغل الان عن القضـايا اللغوية . لهم من مشاكلهم الاقتصادية والسياسيةما يصرفهم آنيا عن مشكلة ثانوية كمشكلة ازدواج اللغة . لكننا نعتقد مخلصين ان ازدواج اللغة من اهم قضـــايا الفكر ، ونعتقد ان الوقت قد حان لنـا كي نفكر في الامر علي صعيد الفكر ، لا على صعيد العـاطفة . يبدأ تحرير الفكر بتحرره من ربقة الحرف .

ان مشكلتنـــا اللغوية مزدوجة ، فهي اولا مشكلة لغوية صرفة : كتابتها ، صرفها ونحوها ، اساليبهـا ، نموها وجمودها ، كتب التدريس فيها واساليب تدريسها ، وهي قضـايا خطيرة ، ولكنها ثانوية اذا قيست بالمشكلة الثـانية : الروحية الفكرية ، التي لا تدخل في نطـاق علم اللغة الصرف بل هي من قضايا البسيكولوجيا والفلسفة . ونرجوا ان يكون في اثارة هذه القضية ما يحدو بالفلاسفة عندنا والبسيكولوجيين للتفكير في الامر .

لازدواج اللغة ، في كل شعب ، اثر في :

(ا) الفكر

(ب) التربية

(ج) الشخصية

(د) الاخلاق

(ه) الفنون الجميلة

(١) اثر ازدواج اللغة في الفكر

المعنا سابقـــا الى قضية فلسفية لا تزال قيد البحث والجدل : هل

الفكر اللغة ؟ وهل يمكن التفكير بدون لغة ؟ وكذلك المعنـا الى خطأ اعتبار اللغة مجرد اداة للتعبير عن الفكر . لانه اذا اعتبرنا اللغة مجرد اداة توجب علينا ، منطقـــا ، ان نفترض وجود فكر مجرد قائم في مخبئآت ينتظر اداة ليعبر عن ذاته تماما كما يشعر النجار الذي يريد شق خشبة بحاجة الي منشار ، وكما يشعر النحات بحـاجة الى ازميل . والمجمع عليه الآن ، سواء كانت اللغة هي الفكر او الفكر هو اللغة ، وسواء اكان هنالك فكر مجرد عن الصور التعبيرية ام لم يكن ، ان ادراك الانسان الوجود ادراكا واضحـا لا يتم الا عن طريق اللغة . واني اذكر بوضوح ما قاله عالم الماني في علم الحيوان في محاضرة له في جامعة لندن عندما كان يبرهن انه يمكن ان يكون هنالك فكر مجرد بدون كلمات : « اكثر التفكير في الانسان لا يتم الا عن طريق الكلام » لان في الكلمات صورا ذهنية ، وعندما تذكر هذه الكلمات تتمثل الصور في عقولنا . اذن اللغة اساس التفكير وسبيل للتفكير [١] . ويترتب على هذا ان تكون اللغة امرا طبيعيا يسهل الفكر بدلا من ان تكون امرا فيه تكلف وعناء وجهد يعوق الفكر . ونحن نعتقد ان انتقـال العربي من لغة سيالة مرنة غير معربة ، من لغة لا تحتاج الى عناء ولا الى بذل مجهود ، الى لغة غريبة عن حيـاته اليومية

---

(١) كان استاذنا سابير (Sapir) يقول لنا : Language is thought - grooves اي انه كان يرى في اللغة «اخاديد» للفكر كتلك الاخاديد التي نجدها على اسطوانة الفونغراف . راجع كتابه Language ص ٢٣٢

صعبة معقدة معربة تخضع لقوالب معينة امر يعوق الفكر ، لان اللغة طريق الفكر . وعوضا عن ان ينصب الجهد الفكري في المعنى ينصرف الى الشكل الذي يظهر فيه المعنى . والمعنى اصل والشكل فرع ، او ذاك جوهر وهذا عرض . هذه هي مشكلة ازدواج اللغة بالنسبة الى الفكر .

سيقول معترض : انت مغـال ، فان من يتقن العربية الفصحى لا يجد فيها عائقا عن التفكير. وها هو طه حسين وعبدالله العلايلي ومشايخ الازهر والنجف واعضاء المجمع اللغوي في دمشق والقاهرة انهم جميعا يتكلمون العربية الفصحى ويعبرون عن الفكر بلغة فصيحة ولا يشعرون بشيء مما تشير اليه . هذا ممكن ، ولكن المعترض يشير الى عدد قليل من الناس ، واما نحن فنشير الى ملايين وملايين من النـاس الذين لم ولن يتقنوا العربية اتقان مشايخ اللغة لها ، لان لهم مشاغل غير اللغة . اكثر الناس يكدح لكسب عيشه لا ليتكلم لغة عربية فصيحة معربة لتعجب الكسائي او ليرضى عنها الفرّاء .

الحقيقة ان هذه القضية (ان ازدواج اللغة يعوق الفكر) قضية تحتاج الى اثبات بالتجارب . ولكن لا نعلم ان احدا من الناس تصدى لبحث هذه الناحية فيما يتعلق بالعربية . غير اننا لنذلل على صحة زعمنا

سنذكر بعض الشواهد المبنية على اختبارنا الشخصي [1] فلنأخذ ولدا عمره ١٠ سنوات، وكاتبا يعالج قضية فكرية او علمية، ومحاضرا او مدرسا.

يطلب الى ولدي رضا، وعمره ١٠ سنوات، ان يتكلم الفصحى في الدروس التي تعلم بالعربية: الحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة العربية. ورضا من الاولاد المتوسطي الذكاء ومجتهد في دروسه. وهو كغيره من الاولاد في هذه السن يأتي الى ابيه او الى امه ليمتحن معرفة دروسه قبل ان يذهب الى المدرسة. وقد حاولت في الاونة الاخيرة ان يكون رضا وازدواج اللغة عنده موضع درس. فكنت اقول له مثلا: ما هي حدود العراق الجغرافية، او اخبرني قصة الاسكندر المقدوني في حربه ضد صور (واذكر هذه الامثلة لانها كانت من المواد المطلوبة منه السنة الماضية) او اخبرني كيف تحل المسألة الحسابية الفلانية. اما اجوبته في البيت بلغته العامية فصحيحة تدل على انه قد استوعب ما طلب اليه ان يستوعبه بيسر وبسهولة. ولكنه يقول لي «يا بابا لازم احكي عربي فصيح». فاقول له هات ما عندك. جرب ان تخبرني هذا الذي

---

(١) كنا نتمنى لو ان بسيكولوجيا حاذقا تصدى لبحث القضية من ناحية علمية وذلك باجراء تجارب على الصغار والكبار. وانا متيقن ان تجارب من هذا النوع ستكون لها فائدة عظيمة في حل مشكلة من مشاكل التربية ومشكلة من مشاكل اللغة.

قلته لي بعربية « مرتبة » . وعندها يقف الفكر ، فكر رضا ، وينصب جهده في الشكل الذي يعبر عن افكاره لا في الحقائق او المعلومات التي يريد ان يتكلم عنها . اصبح الان يفكر بالمفردات وبالشكل الصرفي والنحوي والتركيبي الغريب عن حياته. عندها يستحيل رضا الى ولد غير طبيعي ، الى ولد لا يثق بنفسه، لان رضا يفكر بكلمات وهذه الكلمات التي يريد ان يفكر بها غريبة عنه لا تحضره بسهولة لانها ليست منه ، ولا يعرف شكلها الصرفي والنحوي فيقف فكره. وهذا امر لا نشك فيه ولا يشك فيه كل مدرس منصف. ولا يقف الامر عند هذا فان هذا الصغير (وامثاله من الصغار) يتضايق من نفسه ، وارى احيانا اخرى دمعة تترقرق في عينه لانه لا يستطيع ان يقول بالفصحى ما قاله بالعامية منذ دقائق ، وبيسر وسهولة .

ولكن الامر على نقيض هذا . عندما يكون لسان رضا وفكره على توافق وتجاوب ، عند ذاك تكون لغة رضا موحية للفكر ، فانه يشعر انه سيد نفسه ، يشعر ان له شخصية او فردية يعتز بها ، فهو واثق بنفسه محترم ذاته. ولكن عندما يشعر ان عقله مكبل مقيد خادم للغة فانه يشعر بانقباض وبنفرة من اللغة .

قد تقول ليس رضا عربيا ، او قد تقول ان رضا لا يمثل كل ولد عربي . اما نحن فنطلب اليك ان تسأل آلاف الاباء والامهات اذا كان

عندهم اشباه رضـــا . ونحن على يقين بانهم سيقولون لك : رضا يمثل كل ولد عربي يذهب الى المدرسة ويحاول ان يعبر عن فكره بلغة ليست لغته . وسيقولون لك ان الفكر يقف عند الانتقال من العـــامية الى الفصحى .

خل عنك مشاكل الاولاد ، رغم انهـــا مشكلة خطيرة ، فانهم لا يعرفون الفصحى ، ومن الطبيعي ان تنشأ هذه الظاهرة الفكرية. ولكن تعال معي الى مكاتب اهل الفكر والعلم والفن والفلسفة واطلب اليهم ان يفتحوا لك صدورهم كما يجب ان يفتحوها ـ لان القضيـــة لا تتحمل الكذب والرياء والمكابرة ـ واطلب اليهم ان يصارحوك القول في شعورهم نحو الفصحى عندما يعالجون قضايا علمية وفلسفية واجتماعية. هل تلين لهم ؟ لا اقصد من جهة المفردات فقط ، بل من جهة التركيب والاسلوب واستقامة العبارة العربية . الا يشعرون احيانا ان هذه العبارة او تلك ركيكة ـ ولكن من جهة المعنى صحيحة ـ فيلجأون ، خوفا من نقد علماء اللغة ، الى تضحية الفكر في سبيل استقامة الوزن او التركيب. من منا لم يعد قراءة ما كتبه ، او من منا لم يحذف ، على حساب المعنى ، عبارة قد يؤاخذ عليها لغويا ؟

كثيرا ما استلم رسائل ينتقد اصحابها عبارة سقيمة ، او عبارة غير عربية وردت في مقال علمي او فلسفي او اجتماعي في مجلة الابحاث التي

تصدرها الجامعة الاميركية. وليس معناه ان هذه الجمل ليست عربية او ليست صحيحة ، بل لانها لا تتلاءم والاساليب التي اعتادها اصحاب اللغة. انها مغايرة للغة القديمة التي الفوها. الفرق بين الذين يبحثون العلم والفلسفة وبين الذين يحرصون على قوالب العربية هو ان العلماء والادباء الباحثين يحاولون اخضاع العربية للفكر لا اخضاع الفكر لقوالب العربية.

لا شك في ان نقاد العربية الذين سيقرأون هذا الكتاب سيجدون فيه كثيرا من المآخذ اللغوية. سيجدون ان الجمل متداخلة ، وفي بعضها جمل معترضة ، وفي غيرها اصطلاحات غريبة لا يرضى عنها فحول العربية. ولكني ، في كتابتي، اشعر دوما ان اللغة خادمة لي لا مخدومة. اقول لنفسي انه يجب ان تخضع العربية لي وان تلين لفكري ، لا ان يخضع فكري وعلمي لقوالب معينة تروق لاذواق جيل من الناس ماتوا منذ مئات من السنين.

هل حاولت ترجمة مقال في المنطق او الرياضيات العالية او الفلسفة او علم الاجتماع او علم الانثروبولوجيا، او في علم اللغة ذاتها؟ اما انا فقد حاولت ، والذين حاولوا مثلي لا ينكرون مبلغ الصعوبة في اخضاع العربية لصرامة العلم وتشديده ، ولا ينكرون ان في الترجمة « التقريبية » التي يقومون بها كان عليهم ان يخضعوا الفكر للغة لا اللغة للفكر خوفا من نقد لغوي او خوفا من ان يقال « عبارة سقيمة » او

« عبارة افرنجية » .

ويظهر اثر ازدواج اللغة في الفكر في المحاضر والمذيع والواعظ والمدرس ، هذا اذا لم يعمد هؤلاء لكتابة خطبهم ومحاضراتهم ومواعظهم وتعزيزها بالشكل التام قبل الالقاء . اما اذا طلب اليهم ان يحاضروا ، او يذيعوا ، او ان يعظوا ارتجالا بدون سابق تحضير، فان الكثرة الكثيرة منهم تنفق الجهد الكبير في الشكل علـــى حساب المعنى . واطلب الى القارىء تلطفا ان لا يذكر لي طه حسين والعلايلي وشيخا آخر من هنا ومن هناك يستطيع ان يتكلم ساعة دون لحن ! هؤلاء لا يمثلون العرب الاحياء (اقصد من جهه استقامة اللغة) .

يقول احمد امين في تقديمه كتاب « العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب » [1] ليوهان Fueck ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار (صفحة ص) : . . . . المدرسة الجديدة تستقي من الادب الغربي معانيه واساليبه وتفننه ، ولم تستق من الادب العربي الا الفاظه وبعض اساليبه . . . » ولكن فات الاستاذ ان يذكر ايضا ان هذه الالفاظ بعينها وهذه الاساليب تحد من نشاط المدرسة الجديدة في استقائها من الفكر الغربي .

---

(١) القاهرة ، مطبعة دار الكتاب العربي ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١

(ب) اثر ازدواج اللغة في التربية

ولازدواج اللغة اثر عظيم في التربية ، نكتفي بالاشارة الى اربع نواح رئيسية :

(١) عنصر الزمن واثره الاقتصادي

(٢) الاعراض عن القراءة وكساد الادب

(٣) طغيان القالب على المعنى

(٤) كتب التدريس

(١) عنصر الزمن واثره الاقتصادي

على كل شعب مزدوج اللغة (او اللغـــات) [1] ان يقضي سنة او سنتين او سنوات اضافية في تعلم اللغة . ونحن العرب احد هذه الشعوب فاننا نقضي زمنـــا مدته اطول من الزمن الذي يقضيه الغربي في تعلم لغته .

---

(١) على بعض الهنود ان يتعلموا ثلاث او اربع لغات : الانكليزية وهي اللغة الوحيدة التي تجمعهم ، والهندية التي يأملون ان تحل محل الانكليزية بعد جيل او جيلين ثم اللهجة المحلية او لهجتين . وفي جنوبي افريقيـــا عليهم ان يتعلموا لغة الافريقـــان والانكليزية او لغة اوروبيه اخرى .

ان الانتقال من العامية الى الفصحى هو الانتقال من لغة الى لغة اخرى مغايرة لها (راجع ص. ١١٦ وما يلي) وتعلم هذه اللغة الجديدة، العربية الفصحى، الى درجة الاتقان ليس بالامر السهل . ولا ينكر هذه الحقيقة الا كل مكابر . فحرفنـــا العربي الخالي من الحروف المصوتة يجعل القراءة الصحيحة امرا شاقا ، اذ على القاريء ان يفهم اولاً ثم يقرأ قراءة صحيحة ثانيا . وتعلم حالات الاعراب - وما اليهـــا من جوازات وما يتبعها من شواذ - يحتاج الى ممارسة طويلة . وبعد قضاء سنوات في الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية يخرج اكثر الطلبة غير قادرين على القراءة قراءة صحيحة ولا متمكنين من الكتـــابة كتابة صحيحة - ولا اعتبار للاقلية .

سيقول بعض المعلمين : ان طلبتي لا يشملهم تعميمك الجارف . فانهم اتقنوا العربية قراءة وكتابة في زمن قصير وبيسر وسهولة. قد ينطلي هذا القول على بعض الناس، ولكن لن ينطلي علي وعلى زملائي في الدائرة العربية في الجامعة الاميركية حيث نعطي الطلاب العرب امتحانا بسيطا جدا يتناول كتابة مقال في خمسين سطرا في موضوع عام، وتحليل جملة او بيت شعر تحليلا صرفيا ونحويا . وقد تجمع لدينا من المعلومات عن مستوى اللغة العربية في كل قطر عربي ما لو كنا لننشره على النـــاس لقالوا اننا كاذبون - وقد خطر ببالي يوما ان انشرها بالزنكوغراف -

ولكن قلة المال بيدي حالت دون امنيتي . ولكني مستعد ان اقول — ومستعد ان اتحمـــل مسؤولية ما اقوله — ان الذين يقرأون قراءة صحيحة طبيعية سيالة دون تردد وعنـــاء في التفكير ، والذين يكتبون كتابة عربية سليمة لا يجد فيها الناقد مجالا للنقدبعد دراسةثانوية وجامعية هم قله قليلة جدا بالنسبة الى مجموع المتعلمين من العرب .

وتجابه الجامعات العربية مشكلة خطيرة: انحطاط المستوى اللغوي. وقد سألت اساتذة مصريين وعراقيين وسوريين عن هذه المشكلة ، وقد كان هناك شبه اجماع بان مستوى الطلبة في العربيةمنخفض، ويشعرون ان علي الطلاب قضاء سنة اخرى او سنتين من سني الجامعة الثمينة في اتقان العلوم العربية الآلية قبل ان يبدأوا في تركيز الجهود في تـدريب العقل وتحصيل المعلومات ، وهو الغاية من الدراسة الجامعية .

اذا كان على الفرد منا ان يقضي من العمر شطراً ثميناً في تعلم اللغة فماذا يتبقى من العمر للاستفادة من اللغة ؟ ان عنصر الزمن ثمـين جدا ، لا بل هو اثمن شيء في الحياة ، وقضاء شطر من الزمن في تعلم اللغة خسارة مادية فادحة . قد يقول قائـــل : ولكن الذنب ليس ذنب اللغة انما هو ذنب المعلم وطرق التدريس . في هذا شيء من الصحة . ولكن السبب اعمق من هذا بكثير . قد تنشىء الكليات لاعداد المعلم العربي ، وقد تشكل اللجان من الاختصاصيين لوضع كتب التدريس

ولتقويم اساليب التدريس، وقد تنجح في اصلاح الامر بعض الأصلاح، ولكن المشكلة تبقى قائمة لان القضية قضية اللغة ذاتها وازدواجيتها.

(٢) الاعراض عن القراءة و كساد الادب

وانا اعلم انك ستقول فورا : الاعراض عن القراءة وكساد الادب عندنا مردهما الى الكاتب والشاعر والفنان والناشر وليس الى اللغة ذاتها. قد تشير الى غلبة الامية في الاقطار العربية، والى العامل الاقتصادي، اي الى عجز الكثيرين عن شراء الكتاب العربي، وقد تقول ان المدرسة فشلت في تأدية رسالتها فلم تحبب القراءة الى الناشئين، وقد تلوم البيت العربي او الوالدين في تقصيرهم في استهواء الاولاد للقراءة في البيت، وقد تشكو من المقرؤ ومن طريقة عرضه ونشره وما الى ذلك من العوامل التي نسلم انها عوامل تعمل على الاعراض عن القراءة وعلى كساد الادب وفقر الاديب ماديا وروحيا.

ولكننا نرى في ازدواج اللغة السبب الاول في الاعراض عن القراءة. السبب هو هذه النفرة غير الواعية التي استقرت في مؤخرة ادمغتنا عندما كنا صغارا في الكتاب او تحت السنديانة او في مدرسة الجامع او الكنيسة نقاسي ما نقاسيه في تعلم قواعد العربية واحكامها الشديدة وحرفها الخالي من الحروف المصوتة. السبب هو بعد هذه اللغة

الادبية عن لغة الحياة ، هي هذه وغيرها مجتمعة جعلت العربي يعرض عن القراءة.

سيقول بعض المعلمين: هذا ليس بصحيح، فان اقبـــال طلبتي على العربية اقبالهم على قطعة من الحلوى . ونحيل هؤلاء المتفـــائلين الى ما يقوله علي الجارم ، وهو الرجل الذي كان له اوسع الاختبـــار بشؤون العربية وتدريسها ، فانه في محاضرته التي القاها في المؤتمر الثقافي العربي الذي انعقد في بيت مري ، يقول :

« . . . . . لهذا ولكثير من مثل هذا كره الطلاب العربيـة وارغموا على تعلمها ارغاما، فاخذوها كما يؤخذ الدواء المر الذي لا يثق به المريض ولا يرجو منه شفاء »[1]

(٣) طغيان القالب على المعنى

مما لا نشك فيه ان القالب اللغوي او الاساليب الكتابية الموروثة في العربية تطغى احيانا كثيرة على المعنى . وقد تنبه الى خطورة هذه الظاهرة نفر طيب من الاساتذة في مختلف الاقطـــار العربية فراحوا يحاربونها بافهام الطلبة ان اللغة الجميلة هي اللغة البسيطة التي تعـــبر عن الفكر

---

(١) المؤتمر الثقـــافي العربي الاول المنعقد في بيت مري ، القـــاهرة ١٩٤٨ ص ١٧٥

والعاطفة بطريقة طبيعية لا تكلف فيها ولا اجهاد. قد كان علي، كمدرس العربية، ان اقنع كثيرين من طلابي القادمين من المدارس الثانوية ان المعنى يأتي اولا ثم القالب ثانيا . اذكر حوادث عديدة عندما كان يطرق باب مكتبي طالب قادم للاستفسار عن « كارثة » . وما هي ؟ انه رسب في الانشاء بينما كان ينتظر مني درجة ممتازة جدا . اذن من حقه ان يسأل عن السبب. ولكن السبب بسيط. في هذه السن يحرص الطلاب على ان يطبقوا ما علمناهم اياه في السنة الاخيرة من دراستهم الثانوية في الانشاء. الم يقضِ الاستاذ سنة او سنتين يعلمهم الطباق والجناس وحسن الموازنة والسجع والاستعارة والتشبيه والتورية والاكتفاء والمجاز على اختلاف انواعه ؟ الم نذكر لهم وقع الكلام الجزل الفخم ؟ الم نحدثهم عن اثر العبارة الطنانة ، عن الاسلوب الخيالي ؟ وقد وعى اكثر هؤلاء الطلبة الشيء الكثير من هذه الثقافة اللغوية ، وقد رسخ في اذهانهم ان هذه من صلب اللغة ، والا لماذا قضوا سنة يستظهرون كتب البيان والبديع ؟ وهكذا جاء انشاؤهم موشى بكثير من الزخرف الفارغ : عبارات وعبارات وعبارات ، ولكنها فارغة من كل معنى . والنتيجة رسوب في الجامعة . هناك تناقض شنيع ، يقول الطالب، فانهم من ناحية يعلموننا اشياء اذا ذكرناها لهم رسبونا !

كان يقول لي هؤلاء الطلبة الذين يرسبون في الانشاء بلغتهم العامية

الصادرة عن بساطة واخلاص، الصادرة عن قلب تلميذ يكاشف استاذه في امر كان يظنه الحقيقة بعينها «يا استاذ بنا نفهم ، انتو بدكن لغة يما بدكن فكر ؟ هذا انشا عربي ! اذ كان بدكن فكر خلونا نفهم من الاول ، واذا كان بدكن لغة بس - هيذي لغة !

كنت اغضب اولا واثور ثم انهال على الطالب بقارص الكلام . ولكني وجدت اخيرا ان بعض هؤلاء الطلبة لم يقصد اهانتي او تحقير مهنة تعليم العربية . ادركت بعد زمن انهم مخلصون في قولهم ، جادون في زعمهم بان اللغة شيء وبان الفكر شيء آخر . الفكر في درس الرياضيات والفلسفة والعلوم واللغات الاجنبية ، اما اللغة عندنا فقوالب طنانة خيالية مجازية . عند معاطاة الفكر يتغير الاسلوب . الفكر ومعاطاة الفكر لا يقرن بدرس العربية ، على الاقل في المدارس .

كنت اشعر احيانا ، بعد ان يجلس الطالب وقد اصابه رذاذ كلمات قاسية انى اخطأت اليه . كنت اقول له : هل نحن ، مدرسي العربية ، بلهاء مخبلون اغبياء فارغون افاكون ام ماذا لتسألونا ابدا : « بدكن فكر ولاّ بدكن لغة ؟ » هل بضاعتنا لغة خالية من الفكر ؟ ولكني اليوم اذا سمعت سؤالا من هذا القبيل - وقد قل هذا السؤال كثيرا لان الطلبة قد ادركوا ان سؤالا من هذا النوع يثير حفيظة كل مدرس يحترم نفسه ويحترم مهنته - فاني اتذكر ان في برامج التدريس حصة لتعليم البديع

والبيان (ولنظم الشعر احيانا) كنت اذكر الديباجة والمقـــامة وبعض القطع الطنانة التي تراها في كتب التدريس فاكف عن تقريع الطالب، لانه قد رسخ في ذهنه ان اللغة بقالبها ، بشكلها البياني، باساليبها البديعية، وانه كلما كثر الزخرف جاءت اللغة جميلة مؤثرة .

نعم، للنثر الجميل اساليبه، وللبيان سحره، وللقطع الادبية ما يميزها عن بقية النثر ، ولكن هذا ليس سببا في ان يطغى القـالب على المعنى . وظيفة المدرسة العربيـة - ولاسيما في هذه الفـــترة - ان تضع المعنى والفكر اولا والقالب او الشكل ثانيا . وهذا لا يتم الا بعد ان يصبح لنا لغة واحدة هي لغة الحيـــاة . ما دامت هذه القوالب اللغوية المتوارثة والاساليب البديعية الفـــارغة جزءا من التعليم ، اي مادة مقررة في البرامج ، فانها ستظل توحي الى الطلبة هذا الزخرف الفارغ .

(٤) كتب التدريس

ونحن نؤمن ان اللغة العربية الفصحى لا تلين للاطفال لا نثرا ولا شعرا ، ولا يستطيع عقل الطفل المسكين ان ينتقل بيسر من لغة امـه الي لغة ارستقراطية معربة بعيدة عن حياته كل البعد . وكل معلم او اب عانى تدريس طفله العربية يدرك هذه الحقيقة . واخشى ان تكون لغة هذه الكتب مما يولد فيه نفرة من اللغة ، ورد فعل يقتل فيه الخيال .

أتاني ولدي رضا يوما يقول : « بابا شو يعني خصاصة ؟ » قلت له : لا ادري يا رضا ، فاني اقرأ العربية منذ حوالي نصف قرن ولم امر يوما بهذه الكلمة ، فما لك ولها ؟ قال : هي في درسنا : « قم عن الطعام وبك خصاصة . . . . » قلت امهلني حتى نراجعها في الفيروزبادي او في ابن منظور او ابن سيده لنرى اولا كيف يلفظونها ، اهي خُ او خَ او خِ وثانيا لنجد معناها . ورضا ولد فطين فانه لم يتمالك عن الضحك : البابا في جامعة ولا يعرف كلمة في درسنا ، ها ها ! !

قد تقول ولكن الذنب ذنب المؤلفين ، فان واضعي كتب التدريس ليسوا من ذوي الاختصاص بل من المتاجرين والمستغلين والمرتزقين ممن يعيشون علي هامش وزارات المعارف . وقد تكون على شيء من الحق فيما تقوله ، فاني انا ايضا اقول بان الذي يكتب للطفل يجب ان يكون اولا معلما مجربا مختمرا ، وثانيا مربيا بسيكولوجيا ممتازا وثالثا فيلسوفا وفنانا . ولا تضحك فاني جاد كل الجد ، لانه ايسر على امرىء ان يخاطب جماعة من العلماء من ان يخاطب اطفالا . وهذا المعترض علي حق ، فان هؤلاء المؤلفين لم يراعوا لغة الطفل ، ولم ينتقوا مفردات الطفل ، ولم يراعوا عقل الطفل ، ولم ينزلوا الي مستواه ، ولا سايروه في تفكيره ، ولا عايشوه في لذته ورغبته وخياله . بل الامر على عكس هذا فانهم انهالوا عليه بسيل من الخطب والمواعظ والاخلاقيات والوطنيات

السمجة الثقيلة التي لا يدركها عقله ، لا بل لها في قلبه رد فعل معاكس. ونحن نقول انه اذا كان القحط والجدب في فن التأليف عندناقدبلغ هذه الدرجة المزرية فما علينا الا ان نترجم عن كتب الغرب .

نعم يجب ان نعترف بان بعض الذنب مرده الى المؤلف. ولكن لا معدى من الاعتراف بان اللغة العربية الفصحى ذاتهـــا لا تلين لهؤلاء الصغار . خذ الشعر مثلا واقرأ ما يطلب الى الطفل ان يستظهره وماذا ترى ؟ شعرا (العفو ، نظما او صف كلام) سمجا سقيما ركيكا ، فقيرا في الفكر ، مجدبا في الخيال ، خاليا من العاطفة . ولماذا ؟ الانه ليس عندنا شعراء ؟؟ كلا ، فهم في الاقطـــار العربية اكثر « من الهم على القلب » ولكن السبب الحقيقي هو ان هذا الشعر بطبيعتـــه وبنشأته وبروحه وبأوزانه وبلغته لم يكن يوما للاطفال، حتى ولا لعامة الناس مثلي ومثلك، بل كان للملوك والسلاطين والامراء والاغنيـــاء واصحاب السيف والعشاق المعاميد والوالهين البـاكين . فكيف تنتظر منه ان يلين ليكون اغاني واقاصيص واشعارا للاولاد ؟

لغة الطفل هي لغة الام ، ولغة الام هي العامية لغة الحيـاة . واذا اردنا ان نحبب العربية الى الاجيال القـادمة ـ واللغة ليست لي ولك لاننـــا نحن زائلون ، اللغة للاجيـــال القـــادمة ـ واذا اردنا ان نربي فيهم ذوقا اديـــا وخيالا رفيعا علينـــا ان نبدأ بحل مشكلة لغة

الاولاد[١] . الفصحى ليست لغة الاولاد . لغتهم اللغة التي يولدون فيها .

حل المشكلة اللغوية يبدأ من هنا: كتب التدريس. وقد عقدنا العزم على دراسة لغة الاولأد بين سن الرابعة والتاسعة وذلك بتسجيل لغة عدد منهم، ثم محاولة اثبات عربيتها وبذلك نكون قد خطونا خطوة نحو تيسير كتب القراءة للاولاد .

(ج) اثر ازدواج اللغة في تكوين الشخصية

ولا تسلني ان احدد لك الشخصية فانها من جملة تلك الامور التي يصعب اخضاعها للتحديد العلمي الدقيق كما تحدد مثلا الماء او ملح الطعام . وذلك لانهـــا في الاكثر غير مادية ، هي هالة سحرية طلسمية تحيط بالانسان، بكل انسان، فتجعل منه امرءا محببا او مبغضا او شخصا حياديا لا هو بالسلبي ولا بالايجابي .

تتعرف الى رجل او سيدة، وقبل ان تطول معرفتك به او بها تشعر بانجذاب او بانكماش . وقد تسأل نفسك : لماذا استرعى انتباهي هذا الرجل ولماذا اشحت بنظري عن ذاك ؟ ترى هل هنـاك جو مغنطيسي او كهربائي يغلف الجسم الانساني فيجذب اليه او يدفع عنه؟ ونحن لا

---

(١) وسنطلع على الناس قريباً بتقرير عن لغة الاولاد ، لاننا الان في سياق تسجيل لغتهم تسجيلا كهربائياً .

نعلم الجواب الصحيح ولا يهمنا ان نجلو سر الشخصية ، فان هذا من اختصاص البسيكولوجيين وعلماء الحياة والفلاسفة، انما يهمنا ان نقول ان الشخصية تقوم على عاملين : الوراثة والثقافة .

اما العامل الوراثي في الشخصية فليس لنا يد فيه . سلامة الاعضاء، حسن الصحة (او الاستعداد للصحة) جمال الملامح ، جمال العيون ، القامة وتناسب اعضاء الجسم والذكاء ، جميع هذه عوامل تعمل في تكوين الشخصية ، ولكنها عوامل لا يد لنا فيها . انا اعلم كما تعلم انت ان هناك حركة قوية في كل قطر تعمل على منع زواج من ليس اهلا للزواج كي نقلل من النسل غير المرغوب فيه . ولكننا لا نزال في عصر فيه الزواج قضية شخصية ، والشخص حر في تصرفه . قد يكون من عائلة معرضة للجنون ، ولكنه ليس مجنونا فيتزوج ويظهر في نسله مجانين، وليس للمجنون شخصية . هذا ما اردناه عندما قلنا ان الوراثة عامل طبيعي في تكوين الشخصية ولكن لا قبل لنا عليها .

اما العامل الثاني فهو الثقافة: التهذيب والتربية البيتية والعادات والاخلاق والذوق ولطف المعشر واللغة: جمال اللفظ والصوت والغنى في في المفردات والمقدرة على التعبير. جميع هذه مكتسبة ولنا يد في تنميتها. واهمها في نظرنا اللغة . اللغة تفشي امرنا للناس اكثر من اي شيء آخر. قد تكون السيدة التي تنجذب اليها جميلة الجسم ولكنها لا تحسن

الكلام ان من جهة الصوت او اللفظ او حسن التعبير ، فتشعر حالا انه ينقصها شيء هام لتمام الشخصية فيها .

جميع الامم الراقية تحرص على ان يتقن الجيل الجديد تعلم اللغة الجميلة المؤثرة . فترى ان لغة الولد تظل تحت المراقبة الشديدة - مراقبة الاب والام والممرضة - الى زمن متأخر عندما ترسخ في ذهن الولد ما يسمى في علم اللغة « نماذج لغوية » (Speech Patterns) جميلة رقيقة ناعمة تعبر عن دواخل النفس على افضل وجه . فترى الام تقول: لا تقل هذا بل قل هذا، ولا تلفظ هكذا بل الفظ هكذا،لا يقال هذا في المجتمع فانه خشن ، بل يقال هذا فانه انعم والطف . وعلى هذا النمط تنتقل اللغة الحسنة من الجيل القديم الى الجيل الجديد .

ونحن نعلم ان هناك طبقات من الناس ، حتى في المجتمعات الراقية ، لا تعير هذه القضية الحيوية اقل انتباه ، بل تترك الجيل الصغير يتعلم لغته من هنا ومن هناك . ولكن هناك طبقات اخرى ، حري بنا ان نقتدي بها ، تشعر ان لغة الولد تكوّن جزءا من شخصيته ، اذن واجب محتم على كل ام وعلى كل اب ان ينشئا اولادهما على اجمل الاساليب واحسنها اثراً في نفوس الاولاد وفي نفوس من سيتكلمون معهم.

اما نحن العرب فهل يهمنا ان نراقب لغة الولد ؟ كلا . حتى ان

المتأدبين منا لا يبالون بالامر . وذلك راجـــع للشعور البسيكولوجي الراسخ في ادمغتنا ان العامية ليست اللغة الجميلة الراقيـة التي سينشأ عليها الولد . هذه لغة رطنة ركيكة سقيمة سمجة موقتة . اما اللغةالجميلة التي سيتعلمها الولد في المستقبل في المدرسة فهي الفصحى ، هـذه هي اللغة ، ولا معنى لاهتمامنا بلغة الولد الآن ، فان المدرسة ستتكفل امر تعليمه الصحيح . وفي المدرسة يتعلم لغة غريبة عن الحياة ، لغة نبذتهـا الحياة ، فينشأ الولد وهو لا في العير ولا في النفير ، لا لغة عامية جميلة مهذبة ، ولا فصحى مستعملة . ولذا ترى ان العربي مزدوج الشخصية : شخصية طبيعية محببة يتلبس بها عندما يتكلم لغته الخاصة - ولكنها لغة فقيرة محدودة - وشخصية مصطنعة متكلفة يتلبس بها عنـــدما يقف مواقف رسمية حيث يتحتم عليه ان يتكلم كلاما غريبا عن حياتـــه اليومية .

وهناك ناحية اخرى خطيرة تؤثر في تكامل الشخصية ، وهي العجز الظاهر في حسن التعبير ، التعبير عن اي شيء . فانك اذا قابلت بين ولد عربي وبين ولد غربي في السن ذاتها وجدت ان الولد الغربي يستطيع ان يحدثك حديثا معقولاً مفهوما سليما في عبارته وغنيا بمفرداتة فلا يتردد ولا يتلعثم ولا يردّد مما يترك في نفسك احسن الاثر ، بينما اذا حدثت الولد العربي عن الموضوع ذاته لوجدت ان لغته ركيكة سقيمة

تشكو من فقر معيب بالمفردات[1] . وذلك راجع لازدواج اللغة ولاعتبارنا العامية لغة رديئة لا تليق بنا . وقد تقول لي ان المسألة اجتماعية تربوية ثقافية لا علاقة لها باللغة . عندما يرتفع المستوى الثقافي للام والاب فان لغة الولد ترتقي . لا شك ان في هذا شيئا من الصحة . ولكن المشكلة مشكلة ازدواج لغة اكثر مما هي قضية تربوية .

لن انسى نصف ساعة قضيتها مع بنت انكليزية في السابعة من عمرها في قاعة فندق في لندن . لم تكن القاعة مزدحمة بالزوار ، وكانت هذه الفتاة تتلهى بما اشترته امها لها ذلك النهار . والغريب انها فاتحتني الحديث قائلة : الا تظن ان هذا الفسطان جميل ؟ لقد اشترته لي امي في لندن . قلت لها : على غاية من الجمال . هل انت من لندن ؟ كلا . انا من بريستول وقد قدِمنا صباحا لنشتري اموراً نحتاج اليها في المدرسة. وامي تحب ان تتبضع من لندن . وهي تصطحبنا معها . ولكن لم نجلب اخي الصغير ، لانه لا يقدر معنى السفر والمجيء الى مدينة عظيمة مثل لندن . وحظنا كبير في ان الطقس جميل جدا . آخر مرة كنت هنا كان هناك مطر وضباب ورطوبة مزعجة ـ اما اليوم فجميل . ثم اني لحظت في معصمها سوارا شرقيا فنيا ، فقلت لها وهل اشترت الماما هذا

---

[1] ـ سنثبت هذا بالمختبر . فاننا نسجل الان لغة الاطفال بين ٤ ـ ١٠ وسنذيع النتائج قريبا . والحق انني لست فخورا بلغة الاطفال !!

السوار في لندن ؟ كلا . هذا من الهند . لم اقل لك اني ولدت في الهند وابي لا يزال في الهند ، ولكني لا اذكر شيئا عن الهند فاني ارسلت الى مدرسة في بريستول وانا صغيرة . اختي تعرف الكثير عن الهند وتتكلم الهندية . ثم ان هذه الفتاة استرسلت في الحديث فقصت علي خبر عائلتها وحدثتني عن مدرستها وعن سفرتهـــا من بريستول الى لنـــدن وعن « المفاجأة » التي ستفاجىء بها اخاها الصغير.

الحادثة تافهة وبسيطة جدا وقد يسأل القارىء عن معنى ذكرها في هذا الصدد . السبب هو انني ، يوم التقيت بهذه الفتاة ، كنت اقارن في ذهني بين لغة الولد الغربي والولد العربي فجاءت الحادثة مصداقا لظني . فانني لم اتمالك عن الاعجاب بشخصية هـــذه الفتاة الصغيرة ، وسبب اعجابي وانجذابي اليها كان لغتها ، تلك اللغة السيالة المرنة الحلوة . لم تتردد ولم تتلعثم ولم تفكر كيف تقول هـذا وكيف تعبر عن ذلك . لم تفتش عن مفردات لان المفردات في دماغها الصغير . وقد كان هناك توافق عجيب بين دماغها الصغير ولسانها الحلو .

لا اظن ان اولادنا في هذه السن يطمئنون الى انفسهم ، ولا اظن انهم يثقون بانفسهم عندما يحدثونك حديثا مستمرا مترابطا يدور حول موضوع عام او خاص ، وذلك لاننا لم نعلمهم الكـــلام ، ولم نعلمهم الكلام لازدواج اللغة : غدا في المدرسة يتعلمون ! اما خارج المدرسة

فلهم ان « يعلكوا » ما طاب لهم « العَلْك » .

هل لاحظت لغة عامة الناس وهم يحدثونك في امر ما كيف انهم يرددون ويدورون ويلوكون ويفتشون عن كلمة لا تحضرهم لانها فصيحة لا يعرفونها ؟ اما انا فقد راقبت الناس ويؤسفني ان اقول ان الكثرة الكثيرة في لغتها اقرب الى ان تكون في طور بدائي من ان تكون في طور حضاري راق ، وذلك لازدواج اللغة .

واخيرا يجب ان نؤكد ان للصوت اثرا في شخصيتنا ـ اقصد الصوت اللغوي ، او حسن التلفظ . هنالك قلة قليلة في صوتها نقص جثماني لسبب ما ، وهذه القلة لا يد لها في اللفظ وحسن الصوت . ولكن الكثرة الكثيرة تستطيع ان تكتسب جمال اللفظ وحسن النطق وحلاوة النغم في الكلام اكتسابا عن طريق التعلم والمران ، وهذا مما يضفي على لغتنا سحرا وجمالا ويزيد في تكامل شخصيتنا .

(د) اثر ازدواج اللغة في الاخلاق

للغة اثر عظيم في الاخلاق وفي الآداب العامة . فان في اللغة مختزن فلسفة الشعب وروحيته، وفي كل لفظة صورة ذهنية تؤثر ، عن غير وعي، في التصرف والسلوك. وهذه ناحية خطيرة نتمنى لو اعارها البسيكولوجيون شيئا من عنايتهم . فان اكثر البحوث التي تدور حول اللغة تركزت

في اثر الانسان في اللغة ولكننا ننسى ان اللغة بدورها تعود فتوءثر في الناس، في اخلاقهم، وفي سلوكهم، وفي مثلهم، وفي خيالاتهم. يصنع الانسان الآلة، السيارة والطيارة والتلفون، فتعود الآلة توءثر في حياة الناس وفي عاداتهم واخلاقهم.

عندما يطلب قاطع التذاكر في سيارات النقل في لندن الى الناس ان يدفعوا ثمن تذاكرهم يدخل بين صفي المقاعد مردّدا: Thank you ; Thank you فاصبح معنى Thank you « تفضلوا ادفعوا ما عليكم ! » وانا متيقن ان اثر عبارة Thank you عميق في سلوك الطرفين: قاطع التذاكر والركاب. فانها عبارة تفرض على الطرفين ان يتصرفا تصرفا يليق بمعنى العبارة. فلا صراخ ولا قتال ولا غوغاء ولا غش ولا خداع. ولك ان تقابل هذا بقاطع التذاكر في بيروت مثلا وبعباراته السمجة النابية: « يا الله يابا مدوا ديكن، لا تستحوا، هاتوا تنشوف قبل ما تنزلو . . . . » فلو انه طلب اليهم الدفع بقوله: « ممنون! ممنون!»[1] لوجدت ان تصرف الناس، حتى الخشنين منا، على غير ما تراه من خشونة وجفوة تنتهي احيانا بقتال وسباب يندى له الجبين خجلا. للكلمة اثر في الاخلاق. للغة اثر في التصرف الانساني. هل زرت سويسرا؟ هل دخلت مطاعمها، مقاهيها، فنادقها، سيارات النقل فيها؟

---

(١) رغم انها غير فصيحة.

اول ما تلحظه هو لطف اللغة ، جمال اللغة ، سحر اللغة ، واثر هذا في تصرف الناس .

لا اعلم كيف يعلل الاختصاصيون كثرة الجرائم التي تسمى في الشرق العربي « دفاعا عن العرض والشرف » كقتل الاخت والام والزوجة . اما انا فاقول انها ، الى حد بعيد ، ناجمة عن اثر كلمات لها فعل السحر : ثأر ، شرف ، عرض مثلوم ، غسل العار بالدم ، نخوة ، وغيرها من الكلمات التي تتضمن صوراً ذهنية ومثلا اخلاقية او روحية تفرض على الناس سلوكا معينا . والغريب في الامر احياناً ان هذا الذي يقتل اخته او زوجته او امه قد يكون سيء الاخلاق ، من رواد المحششة ، ولكنه يفعل ما يفعله متأثراً بسحر هذه الكلمات ، ويشعر بدافع يدفعه ان يتصرف كما تملي عليه عبارات اللغة .

ثم هل سمعت اثنين من قرية لبنانية ـ وقد يصدق هذا على غير لبنان ـ يتبادلان التحية عند لقائهما ؟ فعوضا عن المصافحة يدا بيد ، مع شيء من الضغط الذي يعبر تعبيراً صامتاً عن اخلاص واخاء ، تراهما يتراشقان بسيل من التحيات الفارغة نزولاً عند ما تفرضه عليهماقوالب اللغة وكلماتها التقليدية . فالتقليد اللغوي في القرية اللبنانية يملي علينا ان نقول : « صبحكن الله بالخير يا مشايخ ، كيف حالكن ، كيف اشغالكن ، كيف عيالكن ، كيف الولاد ، ان شاء الله بخير ، ان شاء الله

الجميع مبسوطين » وقد تعاد الاسطوانة اكثر من مرة ، وبدون تفكير بالمعنى اما ان هناك اخلاصا بين الناس، ومحبة بين الناس ،فامر لا اشك في وجوده ، وانما انا متيقن من ان للغة بقوالبها ، بتعابيرهـا ، بمفرداتها، اثراً في الاخلاق ، وكلما ارتفع مستوى اللغة ارتفع مستوى الناس الخلقي والروحي .

وهل سمعت جماعة يتراشقون بالمسبات والشتائم ؟ لكل امـة مسباتها وشتائمها . ولكني عندما اقابل بين غنى معجم المسبات والشتائم عندنا وبين فقر معجم المسبات في الامم الراقية لا اتمالك عن الشعور باننا من اسبق الامم في ابتكار المسبات . وهذه المسبات تعود فتوحي للناس ان يستعملوها ، والا لماذا هي جزء من اللغة ؟ وعنـدي انه لو امحت هذه المسبات من قاموسنا لزالت كعامـل لغوي يفرض علينا استعمالها عند الغضب .

وما قولك في الاطناب والمبالغة والاسراف في اللغة ؟ اما نحن فقد الفنا هذه الظاهرة فلا نفكر في اثرها الروحي فينا . واما الغريب عنا فاول ما يتهمنا به هو الكذب والنفاق ؟ اسمعت المذيع اللبناني يقـدم ام كلثوم الى سامعيها عندما حضرت الى بيروت لتغني في عرس؟ اسمعت المؤبنين على قبر نكرة ؟ هل اصغيت الى الخطب التي تلقى في حفلات التكريم لنكرات ولغير نكرات ؟ وقد تقول لي ايضا ان المسألة ليست

مسألة لغوية اذ في كل لغات الارض اطناب واسراف ومبالغة ، انما المسألة مسألة اناس يستعملون اللغة . وقد يكون في قولك شيء من الصحة ، ولكني اشعر ان الذي يملي علينا الاطناب ويجعلنامن المسرفين في القول هو قوالب اللغة . اللغة تحدد لنا السلوك ، واللغة تشق لنا طريق الفكر .

ان ازدواج اللغة يفرض علينا ، وعن غير وعي ، ان نعتبر الواحدة لغة ادبية للصالون وللمواقف الرسمية ، وان نعتبر الثانية لغة عامية سمجة ركيكة هى لغة البيت والسوق ، فلا يضيرها ان تكون خشنةغنية بالمسبات ، وبالصور التي تفرض سلوكا معينا ، لانها عامية . والمأساة ان اللغة التي نعتبرها اللغة لا نستعملها بل نبقيها «على الرف» للمواقف الرسمية . ولكن المواقف الرسمية في الحياة قليلة جدا . الحياة العادية الطبيعية هي التي يكون فيها للمواقف الرسمية نصيب قليل . فنحن ضائعون بين فصحى وبين عامية . ولو كان لنا لغة واحدة لحرصنا على تهذيبها وتشذيبها وجعلها اداة صالحة للتعبير عن الجميل ، ولحرصنا على ان تنتقل هذه اللغة من جيلنا الى الجيل الناشيء فينشأ وقد لينت اللغة روحه ورفعت سلوكه . ومجتمعنا ، بوجه عام ، خشن فظ . الحقيقة تجرح ، ولكن الحقيقة يجب ان تقال .

(ه) اثر ازدواج اللغة في الفنون الجميلة

ويهمنا منها المسرح لعلاقته الوثيقة باللغة . وتدني مستواه فى بعض

الاقطار العربية ، وعدم وجوده في اقطار اخرى امر معروف لن نبحثه . وكثيراً ما يندى الجبين خجلاً عندما يُسأل الواحد منها في بلاد الغربة عن المسرح في بلادنا ! اماانا فكنت اخجل ان اقول انلا مسرح عندنا ، وان كان هناك مسرح فمستواه اقرب الى مسرح صبية يتلهون . المسرح من الفنون الجميلة الراقية التي تباهي بها الامم المتحضرة .

وليس لي هنا ان احدثك عن اثر المسرح في حيـــاة الشعوب الروحية ، وليس لي ان احدثك عن المتعة العقلية التي يتركها في حياة الناس ، وكذلك ليس لي هنا ان اذكر شيئا عن رقي المسرح الغربي ، لاني متيقن من ان كثرة قراء هذا الكتاب قد زاروا الغرب وشاهدوا المسرح عن كثب او ادركوا هذا من ثقافتهم العامـة . انما يهمني ان اقرر حقيقة ثابتة وهي ان قحط المسرح عندنا راجع بالدرجة الاولى للغة العربية الفصحى . فانها العقبة الكؤود .

والامر واضح لا يحتاج الى دليل ، ولن نرهقك بالبرهان . فان الرواية على اختلاف انواعها : الهزلية ، التاريخية ، الفلسفية ، الرمزية ، الرومنطيقية او الفاجعة ، يجب ان تمثل مشهدا من مشاهد الحياة ، او ان تصور صورة من صورها . فانك اذا دخلت مسرحا في لنـــدن او باريس او برلين او ميلان فانك تشعر في الساعة التي تقضيها هناك انك تعايش الرواية . فقد يكون البطل او الضحية او المحبوب او المغضوب

عليه انت او جارك او احد معارفك . لغة اشخاص الرواية لغة حيـــة تنبض بالحياة ، بالعاطفة ، بالشعور . اذا ضحكوا فان ضحكهم طبيعي ، واذا بكوا فان بكاءهم حقيقي، واذا احبوا احبوا حقا،واذا غضبوا او ثاروا غضبوا وثاروا فعلا . فاين هذا من لغتنا على المسرح ، واين هذا التمثيل الواقعي الانساني من وعظنا وخطبنا وتكلفنا وتصنعنا على المسرح؟

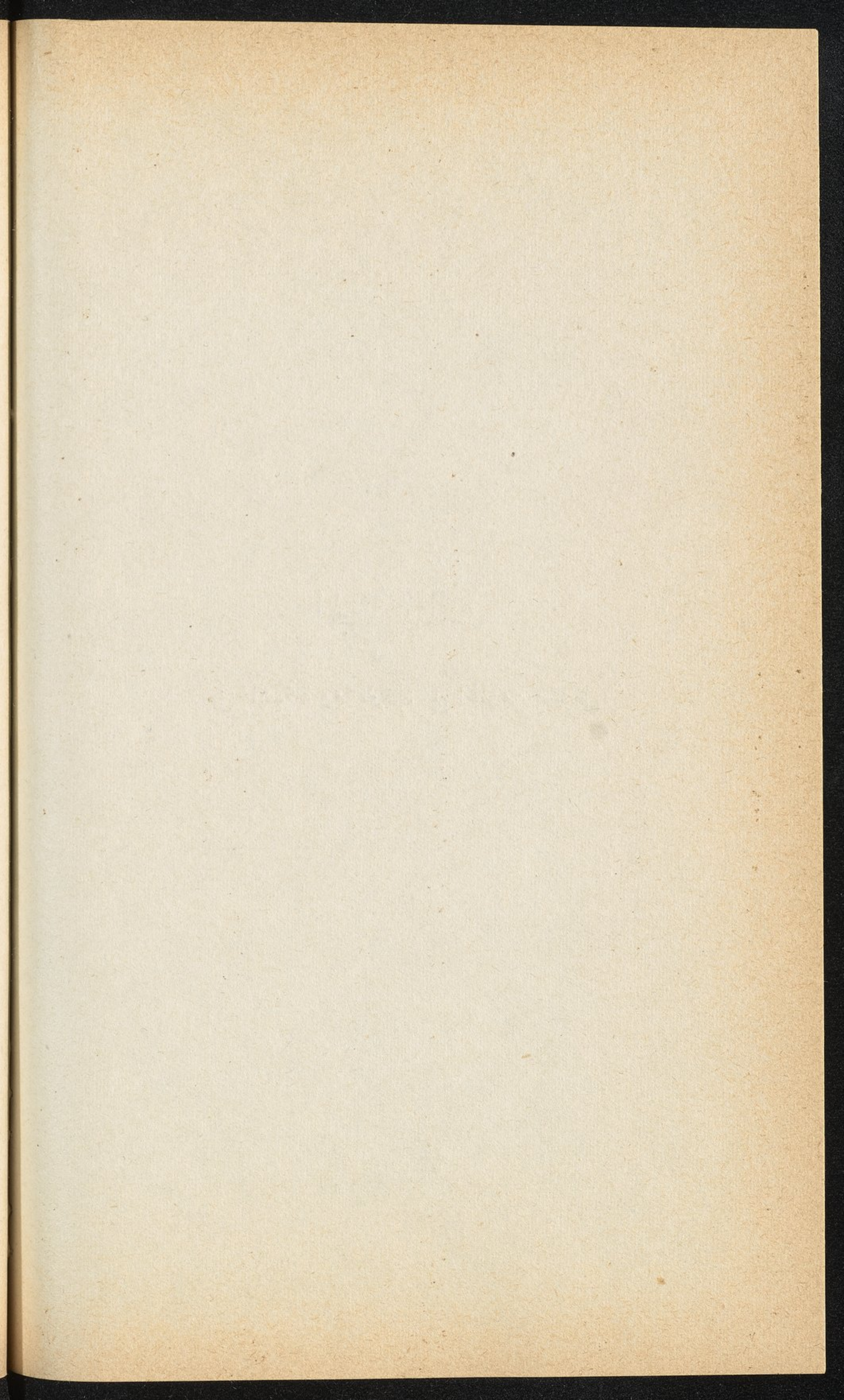
لن انسى رواية عربية حضرتها في قاعة وست في الجامعة الاميركية ـ وكان ريعها للفقراء ـ وكان من جملة اشخاص الرواية ولد في السادسة او السابعة يدخل الى غرفة ابيه ليقول له انه سعيـــد (لسبب ما لست اذكره) دخل الولد ووقف وقفة واعظ او خطيب وقال بصوت متكلف: « عم صباحا يا ابتاه . انني سعيد اليوم .... » بالاعراب التام ! وهذا كل ما بقي في ذاكرتي من الرواية بينما استطيع ان احدثك عن روايات شهدتها في المانيا منذ ربع قرن من الزمن ولا ازال احتفظ بوقائعهـــا وبمعناها وبصور ممثليها !

قد تعترض قائلاً : ان الذنب ليس ذنب العربية بل مرد هـذا الى المؤلف والممثل والمخرج . فان المؤلف عندنا لم يولد بعد ، والممثل لم يلقن ألف باء التمثيل بعد ، والمخرج لا ذوق عنده ولا فن . وقد يكون فيما تقوله شيء من الصحة . ولكنني اكرر القول ان سبب انعـــدام المسرح عندنا وعلة هـــذا العيب الفاضح في التمثيل مردهما الى هذا

التناقض الظاهر بين رسالة المسرح وبين اللغة العربيـــة الفصحى .
المسرح للحياة ، للناس ، لحوادث الناس ، لحياة الناس بلغة الناس. واما الفصحى فلغة اجيال مضى عهدها ، ولا يمكن التعبير عن الحيـــاة بلغة الاجيال الغابرة .

الجزء الثالث

حل المشكلة وما يترتب على الحل من مشاكل



حل المشكلة اللغوية

تكلمنا في الفصول السابقة عن اللغة بوجه عام ، واسهبنا قليلا في وصف علم اللغة الحديث (Linguistics) لنعرف القراء العرب الى علم لا عهد لنا به ، وأبنا اثر هذا العلم في تغيير وجهة نظرنا الى اللغة . ثم انتقلنا الى الكلام عن نشوء اللهجات ، وانتهينا الى القول بان العامية ليست انحطاطا لغويا بل تمثل تطوراً ونمواً تبعا لتطور الحياة الاجتماعية والفكرية . واكدنا انها لغة قائمة بذاتها حية نامية . ثم تكلمنا بشيء من الاسهاب في اثر ازدواج اللغة في الفكر والتربية والأخلاق والشخصية وتقدم الفنون .

وقد المعنا سابقا الى ان الناس حيال المشكلة فئات . منهم لا يعرف ان هناك مشكلة ، ومنهم من يشعر بالاكتفاء لا بل يتعدى الاكتفاء الى اعتبار لغته تامة ، ومنهم من يرى ان هناك مشكلة ولكن حلهم المشكلة حل مبهم غامض :

« يسّروا الفصحى وبسطوها !!

« ارتفعوا بالعامية نحو الفصحى فيلتقيان ! »

واذا سألتهم : كيف ؟ فانهم لا يعطونـك جوابا لانهم لم يدرسوا المشكلة . والخطأ الذي يقع فيه اصحاب هذه المدرسة ـ ومنهم طه حسين ـ حسبانهم اللغة بمفرداتها وباساليبها ، فالتيسير عندهم تحاشي الغريب والابتعاد عن التقعر في الاساليب . وقد قلنا ، وسنقول دوماً للناس ان اللغة تركيب . وتركيب العربية لم يتغير منذ ١٥٠٠ سنة . لم يطرأ اي تعديل عليه ، ولم يمس جوهر اللغة بشيء ! فالتخلي عن لغة المقامـة وتحاشي الفاظ الشنفرى لا يحلّ المشكلة .

حل اية مشكلة يتوقف اولا على تفهم المشكلة ، وثانيا عـلى العزم والارادة الموضوعية العلمية . وكل مشكلة مهما استعصت قابلة للحل . وعندنا ان للمشكلة حلا من اربعة حلول :

(ا) جعل الفصحى لغة التخاطب

(ب) ترك الحال علي ما هى عليه

(ج) فرض لهجة قائمة

(د) وضع لهجة موحدة

ويحسن بنا ان نأخذ كلا منها بشىء من الايجاز . غير اننـــا لن نبحث الحل الثانى (ب) ، « ترك الحال علي ما هي عليه » اولا لان ليس هذا حلنا للمشكلة، وثانيا لاننا لا نوءمن بهذه الفلسفة السلبية. والكتاب برمته حرب عوان علي هذه الفلسفة : خلّ الامور تجري مجراها .

(ا) جعل الفصحى لغة التخاطب

في العالم العربي جماعة مخلصة، قليلة العدد ، تكاد لا تشعر بوجودها اللغوي توءمن أن ارجاع الفصحى الى عهدها القديم يحـــل المشكلة اللغوية . فتراهم يلجأون الى الكلام بلغة فصيحة معربة (كان احدهم المرحوم انطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري) ويعلمونها اطفالهم حتى اذا شب الاولاد وجدوا انفسهم فصحاء بدون الغوص في كتب النحو والبيان ، اذ تكون اللغة الفصحى ملكة فيهم .

قلنا انهم مخلصون في حلهم ، ولكن النقص في الحل ناجم عن عدم تفهم جوهر المشكلة : قيمة الاعراب في الفهم والافهام . وقد ذكرنا لك سابقا ان وجهة نظر هذه المدرسة اللغوية تتلخص بان الفصحى كانت يوما لغة التخاطب (قبل ظهور الدعوة وبعدها) ، ولكن عندما خرجت الفصحى من موطنها الاصلي واحتكت بلغة الاعاجم فسدت ملكة اللغة وظهرت اللهجات العامية . اذن ، وهذا منطقي ، فان هذه اللهجات هي لغات فاسدة ، ركيكة ، وهي انحطاط لغوي . وطبيعي ان تكون الخطوة التالية ، عند حل المشكلة ، ارجاع القديم الى قدمه . اذ كيف يعقل ان نحِلّ لغة فاسدة رديئة محل لغة جيدة فصيحة ؟ وانت ترى ان منطقهم سليم ، ولا سيما وانهم يعتقدون ان ارجاع الفصحى لغة التخاطب يحل المشكلة .

ولكننا نخالف هذا الرأي في ثلاثة امور جوهرية :

اولا : كون الفصحى لغة التخاطب قبل ظهور الدعوة وبعدها امر يحتـــاج الى اثبات[1] . اما انها كانت لغة الخاصة ، لغة الدين والشعر والادب فامر لا ينكره مكابر . اما نحن فلا نعتقد ان الفصحى المعربة كانت لغة التخاطب قبل ظهور الاسلام او بعد ظهوره[2] . يدلك عـــلى ذلك اشارة صرفيي العرب ونحوييهم الى شيوع لهجات مختلفة في الجزيرة العربية حيث ظلت العربية منعزلة بعيدة عن اثر اللغات الاجنبية . وقد اطلقوا عليها اسماء وحددوا مناطقها . وهذا ينافي زعم من يزعم ان لغة الناس كانت الفصيحة المعربة . ثم اعتبر قضية تفشي اللحن الذي كثرت الاشارة اليه زمن النبي والراشدين والامويين. ومتى كانت اللغات تفسد في فترة قصيرة كهذه؟ وراء نشوء اللهجات اجيال واجيال . يروى عن عبد الملك بن مروان انه قال : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » . وكان الحجاج وهو على فصاحته، يسأل يحيى بن يعمر النحوي : اتراني الحن ؟ وقـــد اشرنا سابقا الى رواية عن ابي بكر انه كان يقول : « لان اقرأ واسقط احب الي من ان اقرأ فالحن » .

---

(١) يحسن بمن يريد الاطلاع على هذه الناحية التاريخية في حياة العربية ان يراجع كتاب فولرز : Vollers
Volksprache und Schriftsparche im alten Arabien , Strasbourg. 1906

(٢) ولكن هذا لا يمنع وجود فئة اوستقراطية بلغتها واجتماعياتها ، تستطيع ان تتخاطب بها – وهذا غير القول بانها كانت لغة الحياة .

ومن هذا القبيل قصةوضع النحو تلافيا للحن. فان كانت الفصحى لغة الناس وان كانت لغة متمكنة فيهم ، فلماذا فقدوها في فترة قصيرة ؟ ثم اعتبر قواعد النحو نفسها وتعسفها وخروجهـا عن دائرة المعقول ، الامر الذي يشير الي ان هذه اللغة لا يمكن ان تكون لغة الناس اليومية. وقد المعنا سابقا الى ان احكام العربية الفصحى وضعت عـلى اساس الشعر الجاهلي والنثر الفني ، والشعر والنثر الفني لا يمثلان لغة الحياة .

ثانيا : نخالف الجمهور في اعتبارهم العامية لغة رديئة فاسدة ، او انها انحطاط لغوي بل الامر عندنا على نقيض هذا . انها (العامية) لغة حية نامية متطورة ، وتصلـح ان تكون اداة طيعة للتعبير عن الفكر والشعور والعلم والفن . ولا نأخذ بالزعم القائل ان الاعتراف بالعامية اعتراف بلغة فاسدة ، او احلال لغة فاسدة محل لغة فصيحة جيدة . وقد عقدنا فصلا سابقا أبنا فيه هذه الناحية فلا ضرورة للاعادة .

ثالثا : نخالف القوم في حلهم المشكلة على هـذا الشكل - ارجاع الفصحى لغة التخاطب - لان طبيعة اللغة المعربة تفرض تجزأها الى لهجات ، لان الاعراب ليس له قيمة بقائية ، بل هو زخرف لغوي .

لنفترض ان الله سبحانه وتعالى اراد ان يظهر للناس اعجوبة فافاق العرب غدا وقد نسوا لهجتهم العامية وحل محلها الفصحى ، وبـدأوا

حياتهم اللغوية من جديد : التخاطب بالفصحى . ونحن نؤكد ان التاريخ ، في هذه القضية الخاصة، سيعيد نفسه حتما : بعد جيل اوجيلين تنحل هذه اللغة المعربة الى لهجة عامية غير معربة . والتاريخ يشهد على صحة ما ندعي . الم يتكلم الناس الفصحى على زعم بعضهم ؟ الم يقل الواحد منهم لامرأته : « يا امرأة اذهبي الى السوق واشتري لنا رطلاً تمرا باثني عشر فلسا . » ولكن لماذا تخلى الناس عن لغة كهذه ؟ اكانوا مشاغبين ام شعوبيين ام خارجين ام اصحاب نفوس ذليلة لا تشعر بالعزة القومية ؟ كلا ، لم يكونوا على شيء من هذا ، ولم يدركوا يوما انهم انحرفوا عن الفصحى ، لان ذلك تم عن غير وعي او قصد (هذا اذا سلمنا انهم كانوا يتكلون الفصحى) . نشأت اللهجة المحكية كنتيجة محتمة لنواميس اللغة ، وعليه لا يمكن ان نأخذ بهذا الحل .

(ج) فرض لهجة قائمة

وعلى ضوء تاريخ علم اللغة هذا امر ممكن تحقيقه . فاننا عندما تكلمنا عن نشوء اللهجة وعن « السلطة العليا » التي ترفع لهجة ما الى مرتبة اللغة الادبية عززنا القول بشواهد عدة[1] . فان اللغة الروسية الادبية والالمانية والافرنسية والأنكليزية والأسبانية والعربية الفصحى

---

(١) راجع ص ٩٥ .

(اللهجة التي نظم بها الشعر القديم وبها نزل القرآن الكريم) جميع هذه اللهجات اصبحت لغات ادبية معترف بها بفضل سلطة فرضتها، سواء اكانت السلطة عسكرية ام دينية ام طبقية . فهل في الجو العربي ما يبشر بتوفر شرط او شروط كهذه ؟ هل نرى في المستقبل القريب بلدا عربيا يفرض ذاته سياسيا وعسكريا وادبيا على جميع الاقطار العربية فيوحدها ، ويفرض عليها لهجته الخاصة ؟ هل نرى في المجتمع العربي طبقة ادبية ارستقراطية ذات لهجة خاصة بها تحاول ان تفرضها بما تنتجه من ادب وشعر وفن[1] ؟

اما نحن فلا نرى في الافق العربي ما يبشر بوقوع امر كهذا . نحن من المعجبين باللهجة المصرية وكنا نتمنى ، لو كان العرب شعبا خضوعا للنظام ، مذعنا للاوامر ، ان تفرض علينا لهجة كهذه توحد لساننا . ولكن ايرضى اللبناني عن لهجته ؟ هل تعترف بغداد بافضلية لهجة القاهرة ؟ وهل يقبل الدمشقي ان يتخلي عن «شلونك سيدي ؟ » ويحل محلها « ازيك يا اخي ؟ »

(د) وضع لهجة موحدة

وقبل بحث هذا الحل نرى ان نوضح معنى قولنا « وضع لغة او

---

(١) لاحظنا اخيراً ان المغني اللبناني المتحذلق يميل الى ان يكون غناؤه حسب لهجة مصرية واحيانا بدوية ، ولست ادري اذا كان هذا من قبيل التقليد او من قبيل الاعتراف بافضلية اللهجة المصرية والبدوية .

لهجة » او « لغة موضوعة . » اذ قد يكون التعبير جديدا في العربية . ان هذا المصطلح يعني خلق لغة جديدة وفرضها على المجتمع لتحل محل لغة اخرى . ويقابله في الانكليزية Constructed Language اي لغة مبنية . ويقصدون بذلك انها ليست نتيجة تطور طبيعي للغة ، بل لغة مصطنعة موضوعة كلغة الاسبرنتو . ونسبة لاهمية الموضوع ونسبة لما له من علاقة وثيقة بموضوعنا فسنطلب الى القارىء ان يعذرنا اذا انحرفنا عن الموضوع قليلا وتكلمنا في الفصل التالي عن هذا الموضوع .

هل يمكن وضع لغة ؟

ان الناس ازاء هـــذه القضية منقسمون الى فئتين : فئة تقول باستحالة فرض لغة موضوعة مصطنعة ، لان في اللغة الاصلية روح الامة منذ ان تكونت الامة . وفئة ترى ان الامر ميسور ، وقد بلغ الانسان في تقدمه الحضاري مستوى يفرض عليه التعاون الفكري والتفاهم المشترك. اذن يجب ان يكون هناك لغة عالمية موضوعة .

والناس منقسمون ايضا الى فئتين ازاء وظيفة هذه اللغة . فئـــة تقول ان اللغة الموضوعة هي للتفاهم الدولي ويجب الا تتعارض مع اللغة القومية ، وليس لها ان تحل محلها . وترى الفئة الثانية المتحمسة ان تحل اللغة الموضوعة المصطنعة محل اللغة القومية ، لان الغاية النهائية هي خلق عالم موحد اللسان ، وبالتالي موحد الشعور والاماني .

يذكر القارىء ان في سفر التكوين اسطورة جميلة عن سبب تكاثر اللغات . فان الانسان حسب زعم الاسطورة كان يتكلم لغة واحدة . ثم انه مر في خاطر بعضهم ان يبني برجا عاليا يصل الى السماء . فخافت

الآلهة من ان يصل الانسان الى السماء « فبلبلت » السنة البنائين ، وانعدم التفاهم بينهم ، فكفوا عن البناء . وقد سمي الموضع « بابل » لان الله بلبل الالسنة فيه . وهي اسطورة جميلة وخرافة شعرية ، او محاولة فيلولوجية بريئة لتفسير كلمة بابل التي لم يفهم واضع الاسطورة معناها (مركبة من باب - ايلو اي بوابة الآلهة) . وقد جهد الانسان منذ العصور المتوسطة للقضاء على هذه البلبلة التي فرضتها الآلهة ولاحلال لغة واحدة ، فكانت فكرة اللغة العالمية الموحدة .

ان محاولة وضع لغة عالمية ، او مصطنعة ، تحل محل البلبلة اللغوية تقوم على احد المبادىء التالية :

(١) ان لا تكون اللغة العالمية الموضوعة مبنية على لغة او لغات معروفة ، بل يجب ان تكون مركبة من كلمات جديدة موضوعة ومن صرف ونحو واسلوب في التركيب جديد ومنطقي وعلى غاية من البساطة. ويجب ان تكون كتابتها فونتيكية ، اي ان تطابق التهجئة اللفظ ، وحروفها هندسية جميلة متباينة لازالة المشابهة .

(٢) ان تكون اللغة العالمية مبنية علي لغات كلاسيكية معروفة كاللاتينية والاغريقية والسنسكريتية وقد اقترح من هذا النوع من اللغات اكثر من ٣٠ لغة ، من جملتها الاسبرنتو (الامل !) لواضعها الدكتور

زمنوف البولندي ، ولغة نوفيال Novial لواضعهـــا اوتو يسبرسن اللغوي المشهور .

(٣) ان تكون اللغة العالمية مزيجا من لغات مختلفة معروفـــة ، ومصطلحات علمية مشتركة ، ومن رموز وارقام لها قيمتها اللغوية . وقد اقترح اكثر من ١٢ لغة من هذا النوع اشهرها Volapük لواضعها شلاير (Schlayer) . واسم اللغة مركب من لفظتين انكلوسكسونيتين قديمتين Vol ومعناها العالم ، ومن pük ويقابلها Speak في الانكليزية .

(٤) ان تكون اللاتينية الميسرة المبسطة ، او الانكليزية ، بعـــد ادخال تعديل جوهري على قوانين التهجئة ، اللغة العالمية ، اي الاعتراف بلغة غنية واسعة الانتشار وجعلها لغة المستقبل .

ولا يصعب على القارىء ان يدرك سبب تحمس دعاة اللغة العالمية. انهم امميون يحلمون بزمن تحل فيه الاممية الرحبة internationalism محل القومية الضيقة . لقد جرب الانسان القومية وقاسى من نتائجها مـا قاسى ، فليجرب الآن فلسفة جديدة في الحياة : الاخوة العالميـة . ومن شروط قيام الاخوة توحيد الذوق والشعور والاهداف ، واللغة تستطيع ان تخلق الجو الذي تستطيع هذه الاخوة ان تعيش فيه . ولكن خصوم اللغة العالمية يشكون في نجاح المشروع ، لان اللغة الموضوعة تفتقر الى بعض العناصر الانسانية التي تضفي على اللغة مسحة من جمال وسحر ،

والتي لا يمكن وضعها بل انها تنشأ نشوءا تلقائيا وعلى ممر الاجيال. فانهم يقولون لنا ان اللغة لا يفرضها الصرفيون او الفلاسفة ، ولا تولد اللغة في مختبر ، ولا توضع وضعا حول مائدة مستديرة او في مكتب لغوي . يخلق اللغة الناس : شعرؤاهم وكتابهم وفلاسفتهم وعلماؤهم وفنانوهم وصناعوهم وفلاحوهم . الحياة تولد اللغة ، والدولة القوية تعمل على نموها وانتشارها . فلو انه قيض للاسكندر ان يعمر ليحقق احلامه الاستعمارية لكانت ، ربما ، اللغة اليونانية اليوم هي اللغة العالمية . وحاول الرومان فرض لغتهم على شعوب امبراطوريتهم المترامية الاطراف ، وكانوا علي وشك جعلها لغة عالمية . وحيث يمتد سلطان الانكليز اليوم تنتشر لغتهم ، ومع بضائعهم واساطيلهم تخرج اللغة الي جميع انحاء العالم .

ان اللغة الموضوعة اصطناعية ميكانيكية خالية من العنصر الانساني ، من السحر الكامن في اللفظة والتعبير . فان في اللهجة المصرية ، مثلا ، جمالا وسحرا يستهوياني ، وانى لواضع اللغة وضعا في مكتب او مختبر ان يخلق هذا الجمال وهذا السحر ويضفيهما على اللغة ؟

ويقولون لنا ، وقولهم صحيح ، ان الناس لم ولن يقبلوا على لغة موضوعة ، فانها تفقدهم ادبهم ، وتقطع صلتهم بالتاريخ ، وتسلبهم اساطيرهم واغانيهم ونكاتهم وامثالهم التي لا يمكن التعبير عنها بلغة

موضوعة . ويبعدون اكثر من هذا فيقولون لنا ان مجرد الترجمة من لغة الى لغة يفقد اللغـة كثيرا من الامور الدقيقة التي هي اقرب الى الروح منها الى شيء مادي، فكيف بنا اذا وضعناها بلغة مصطنعة ؟

اما نحن فان مشكلتنا تختلف تمام الاختـلاف عن المشاكل التي تخلقها اللغة المصطنعة والموضوعة او العالمية . واذا نحن طلبنا بوضع لغة عربية محكية موحدة ، فان هذا لا يعني اننا نطالب بالقضاء على لغـة واحلال لغة اخرى محلها. كلا ، هذا لا يخطر لنا ببال اذ عندنا لغة عربية صرفة مشتركة بين الشعوب العربية خلقتها عوامـل ثقافية واجتماعية وسياسية في الثلاثين سنة الاخيرة ـ وهي اللغة العربية المحكية التي يتكلم بها المصري المثقف والعراقي والسوري واللبناني والفلسطيني عندمـا يضمهم مجتمع . وهي العربية المحكية التي تسمعها في ارض الجامعات العربية في مصر ودمشق وبغداد وبيروت . هي لغـة النادي والصالون ، وهي لغة المجتمع العربي الراقي التي خلقتها المدرسة والصحافة والاذاعة والسياحة والاصطياف والتجارة والتقارب السياسي والتعاون الاجتماعي.

ان هذه اللهجة العربية المشتركة بين افراد المجتمع الراقي ليست معربة بل هي لهجة عامية بعيدة عن الاقليمية ، وتعتمد على الفصحى في جميع مفرداتها وفي تركيبها وفي عباراتها . ونحن نريد ان نؤكد هذه النقطة لانك تسمع كثيرين من دعاة جعل الفصحى لغـة التخاطب

يقولون : « أصغِ الى الطبقة المثقفة فانهم لا يتكلمون العامية بل لغة قريبة من الفصحى ، ولو شددنا قليلا في الدعاوة للفصحى لرأينا الناس جميعا يتكلمونها بعد جيل من الزمن ! » وهذا ليس بصحيح . ان هذه اللهجة العربية المشتركة ليست بعربية صحيحة معربة ونحن قد درسناها عن كثب وراقبنا متكلميها ، وفي احيان كثيرة اشتركنا في هذه الحلقات قصد دراسة هذه اللهجة لاننا نرى فيها الحل المرضي لمشكلتنا اللغوية .

وخلاصة القول نعتقد مخلصين ان الحل المرضي للمشكلة اللغوية هو الحل الرابع (د) الاعتراف بلهجة موحدة هي لغة المتأدبين في جميع الاقطار العربية . وقد ابنا لك في هذا الفصل اننا بغنى عن وضع لغة لان لدينا لغة موحدة هي هذه اللغة التي يسرتها الحياة وبسطها الاستعمال . هي اللغة التي نولد بها ، وبها نعبر عن الحياة .

خصائص اللهجة العربية المحكية المشتركة

لهذه اللهجة العربية الجديدة المشتركة بين الطبقات العربية المتعلمة، والتي خلقتها ظروف الحياة العربية الجديدة ، خصائص تجعلها مغايرة للفصحى ، وفي الوقت ذاته تجعلها لغة مرنة سلسة طيعة تصلح ان تكون اللغة العربية الادبية . واهم خصائص هذه اللغة العربية :

(ا) اسقاط الاعراب
(ب) نورمها المشترك
(ج) اعتمادها الفصحى معينا لها

(ا) سقوط الاعراب

ليست هذه اللهجة معربة . فانني لم اسمع مثقفا عربيا واحدا يقول - على سبيل المثال - : « اخذتُ الكتابَ مِن الولدِ صَبَاحاً » بل اني متيقن ان المثقف البغدادي والمصري والحلبي والبيروتي والعماني يقول : « أَخذْتِ الكتابْ منِ الولدِ الصُبح او عبكرة » او بشكل يقرب من هذا . ويهمني ان اوكد هذه الناحية لاقول لمن يزعم ان مثقفي

العرب يتكلمون لغة عربية فصحى ـ اذن يسهل علينا ارجاع الفصحى لغة الكلام ـ انه خاطيء في زعمه. لا اثر للاعراب فيها. وهذه الظاهرة اللغوية، في نظري، من دلائل حيوية هذه اللهجة ومقدرتها على مسايرة الحياة. واكرر القول، ربما للمرة الثالثة او الرابعة، ان الاعراب ليس له قيمة بقائية، ولو انه كان ضروريا للفهم والتفاهم لابقت الحياة عليه. ولكن لانه زخرف،ولانه بقية من بقايا العقلية القديمةفي اللغة،في كل لغة، فان الحياة نبذته.ولا تسلني ان اثبت لك هذا بالبرهان، فان تاريخ العربية ذاتها يثبت صحة هذه الدعوى، علي الاقل بالنسبة الى زعم من يقول ان العربية المعربة كانت لغة الكلام. ولا تنس ان الوقف ـ وعندالوقف نسقط علامة الاعراب ـ أصل والاعراب فرع.

ان الاعراب عقبة في سبيل التفكير. ذلك مما لا نشك فيه. وسقوطه من اللهجة المحكية خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقا مُمهّدا للفكر[1]. فانني لم الحظ مصريا او عراقيا او سوريا تردد او تلعثم او توقف عن التكلم هنيهة ليرى اذا كانت هذه الكلمة بضمة في آخرها او فتحة او كسرة، او اذا كانت حركة البناء واحدة او مثناة، او اذا كانت (علي سبيل المثال) مساجدُ او مساجدٌ، مساجدَ او مساجداً او مساجدِ. جميع هذه الاعتبارات سقطت من لغة الكلام لانها ليست ضرورية

---

(١) كما كان استاذنا سابير Sapir رحمه الله يسمي اللغة في محاضراته علينا: groves ، Thought اي اخاديد لمجرى الفكر.

للفهم والافهام . الكلمة هي « مساجد » ويفهمها كل عربي سواء أكانت معربة ام غير معربة ، منوّنة ام غير مُنوّنة .

(ب) نورمها المشترك

واملنا ان يكون هذا المصطلح مألوفا الآن ، ولكننا على سبيل التذكير نقول ان النورم في اللغة هو المشترك ، او النموذج العام ، او المألوف ، او العادي المتفق عليه والمقبول . وللهجة العربية المشتركة التي نحن بصددها نورم. فانها، فضلا عن كونها غير معربة (وسقوط الاعراب هو نورم) تتفق فيما بينها في كثير من نواحي الصرف والنحو .

اعتبر مثلا عدد الضمائر في هذه اللهجة فانه واحد : ثمانية لا اربعة عشر ، كما هو في الفصحى ، وهي : « هو هي هم ، انت انت انتو ، انا نحن » . ولا اعني انهم يتفقون في لفظها فقد يقول الواحد منا « هُو » والآخر « هُوِّي » وآخر « هُوَّا » ولكن هذا امر ثانوي ميسور الحل اذا ضبطنا احكام هذه اللغة . فاننا نستطيع ان نعلم الجيل القادم ان هذا الضمير هو « هُو » . الامر الهام ان العرب قد اسقطوا ٦ ضمائر من لغة الكتابة . وهذا اقتصاد خطير المعنا اليه سابقا عند كلامنا عن حسنات العامية . فان تصريف الفعل ماضيا ومضارعا وامرا اصبح اقل عددا واسهل اعرابا فعوضا عن ان نقول : رأيت الرجال يدخنون ورأيت النساء يدخن نقول : « يدخنوا »

ثم أعتبر، على سبيل المثال، قضية احكام العدد والمعدود فانها واحدة في هذه اللهجة المحكية المشتركة. فانني قد سمعت المصري والعراقي والسوري يقول: «تلات رجال وتلات نسوان» وخمستعشر ولد وخمستعشر بنت. نعم يختلفون في اللفظ احيانا، فيقول المصري: tumnu - mîya ويقول اللبناني tmân miyi ، وهذا امر ثانوي ميسور الحل عند كتابة هذه اللهجة وعند ضبط احكام اللفظ. انما الشيء الهام جدا هو ان المصري والعراقي والسوري واللبناني، عن غير قصد، وبدون سابق معرفة او تصميم، يتفقون في احكام العدد، وهي احكام سهلة هينة بسيطة لاتعقيدفيها ولا احاجي، ذلك لان الحياة بسّطت ويسّرت.

ثم اعتبر قضية التركيب النحوي واساليب التعبير، فانها واحدة، ولا اعتبار للفروق في المصطلحات والتعابير، انما الشيء الهام، والهام جدا، هو ان التركيب واحد. ونكرر القول، وربما للمرة الثانية او الثالثة، ان اللغة بتركيبها. جوهر اللغة التركيب، اما المفردات فتولد وتهرم وتموت ويُقتبَس غيرها الى ما هنالك من تغييرات. اما التركيب فثابت ومستمر. وتركيب اللغة العربية المحكية واحد.

(ج) اعتمادها الفصحى معينا

ما لا شك فيه ان لغة العربي الذي لم يقيض له شيء من التعلم لغة سقمية محدودة في مفرداتها ركيكة في اساليبها. قد تعبر عن الحياة العربية الضيقة ولكنها تعجز عن ان تعبر عن الحياة الحضرية المعقدة او عن

الفكر والسياسة والاجتماع كما تستطيعه اللهجة العربية المشتركة التي يتكلم بها المثقفون . والسبب في قحط العامية عند عامة العرب راجع لازدواج اللغة عندنا . فان العامية ، لكونها عامية ، انكمشت على ذاتها في اطار ضيق ولم تتفتح للحياة ولم تنم بنموها . ولم يأبه الجيل القديم ان يعلم الجيل الجديد فن الكلام ، والكلام فن ، بل يشعر جل الناس ان فن الكلام من اختصاص المدرسة حيث تعلم الفصحى ، واذا كانت العامية سقيمة في تعبيرها ضيقة في مفرداتها فلا ضير في ذلك لانها عامية.

ولكننا نلاحظ ان اللهجة العربية المشتركة بين الطبقات المثقفة تعتمد الفصحى ينبوعا لانمائها في المفردات والتعابير والاساليب . والعربية الفصحى غنية بمفرداتها وتعابيرها ، ويجب ان تكون معينا يستقى منه كما تستقي اللغات الاوروبية من اللاتينية والاغريقية.

وقد استطاعت العربية ان تجاري الحياة الجديدة الى حد معين فقط، وهذه المجاراة فرضت علينا التوليد والقياس والترجمة والاقتباس ، وجميع هذه ظاهرة في لغة المتعلمين .

وخلاصة القول ان هذه اللهجة العربية المحكية التي نقترحها لغة ادبية هي العربية الفصحى الميسرة المبسطة كما يسرتها الحياة . وكما بسطتها الحياة . بقي علينا ان نتكلم عن شروط نجاحها وشيوعها واعتبارها لغة رسمية عن طريق الاعتراف بها .

كيف تصبح
هذه اللهجة المشتركة لغة رسمية

لكي ينجح مشروع لهجة عربية محكية مشتركة يجب ان تتوفر الشروط الاساسية التالية :

(ا) ان يكون لها ادب

(ب) ان تكتب بالحرف اللاتيني

(ج) ان تضبط احكامها الصرفية والنحوية والصوتية

(د) ان يقبل بها العرب

وهي شروط يجب ان تتوفر في كل لهجة قبل ان تصبح لغة رسمية معترف بها . ويحسن بنا ان نقول كلمة في كل منها .

(ا) ان يكون لها ادب

لا توضع اللغة وضعا ، ولا يخلقها الصرفي ولا النحوي ، ولا يفرضها مجمع لغوي او حكومة . يخلق اللغة الادباء والشعراء والفنانون والصحافيون والسياسيون والاجتماعيون والمعلمون وعلماء الطبيعة ، والفلاحون والصنائعيون وغيرهم من الناس .

ولا نعنى بالادب في هذا المقام الشعر والنثر الفني في القصة والوصف بل اننا نستعمل اللفظ بمعنى اعم واشمل . فاننا نشمل ، الى جانب الادب بمفهومه العام ، كل ما يُكتب في السياسة والقانون والاجتماع والعلم والفلسفة . واذا اقدم اهل الفكر على تدوين الفكر والادب بهذه اللهجة فان نتاجهم الأدبي يفرض الأعتراف بها ، ويصبح هذا النتاج السلطة العليا في اللغة . اما اذا لم يسهم الادباء والعلماء والفنانون في خلقها - اي انهم اذا لم يعترفوا بها لغة تصلح للتعبير عما عندهم من فن او علم - فان هذه اللهجة تبقى لهجة ، ولكي تصبح اللهجة لغة رسمية تحتاج الى من يفرضها ، ولن يفرضها سوى الادب .

ولكن مما يؤسف له ان العرب لم يحفلوا في تاريخهم المديد بالادب الشعبي ، بل كان الادب عندهم ابداً ارستقراطيا يعيش في بيئة ضيقة : البلاط او القصر او الحلقة الادبية في بيت سري او امير . اما اغاني الشعب وشعره واقاصيصه وامثاله وخرافاته واحلامه فجميع هذه من العامة وللعامة ، اذن لا تليق بجلال التدوين . ولكننا نعتقد ان صيرورة اللغة العامية لغة ادبية تنزل الاديب الى مستوى عامة الناس فيصوّر لنا الناس كما يجب ان يصوّر الناس . هذا هو الادب الحيّ .

(ب) ان تكتب بالحرف اللاتيني

تدوين اللغة برموز كتابية امر ضروري ، ولن نطيل الكلام في هذا

لان الامر واضح . حسبنا ان نقول ان الكتابة عجلت في تقدم الانسان الحضاري وسهلت انتقال الفكر والعلم والفن والاختبار من جيل الى جيل . وقد قلنا في غير هذا المكان ان الكتابة عرض وهي طارئة في اللغة، ولا فرق في تدوين اللغة بحرف لاتيني او هندي او صيني او عربي . الكتابة ليست من اللغة بشيء ، كما ان الرموز الموسيقية ليست من الموسيقى بشيء ، او كما ان الرموز الرياضية ليست من حقائق الكون بشيء .

وحرفنا العربي لا يصلح لتدوين هذه اللهجة ، كما انه لا يصلح لكتابة الفصحى به . وذلك لان الحرف العربي الخالي من الحروف المصوتة لا يمكن ان يضبط به لفظ الكلمة ضبطا دقيقا، بل تظل الكلمة هيكلا عظميا لا حياة له الى ان يسبغ عليها القارىء الحياة . وحياة الكلمة العربية في دماغ العربي لا في الصحيفة التي امامه . وفضلا عن هذا فان الكلمة العربية المكتوبة بحروف صامتة عرضة لقراءات مختلفة.

نحن من الذين يعتقدون ان كتابة العربية بالحرف اللاتيني ، كما اقترحه عبد العزيز فهمي باشا ، يضبط لفظ اللغة مرة واحدة لجميع الناس، ويخفف عنا عبء مشاكل كثيرة مالية وتربوية . ونؤكد ان نصف

قواعد الصرف والنحو تهمل مرة واحدة لان اكثر هذه القواعد وضعت لمساعدة الولد على القراءة الصحيحة ، ولكن عنـــدما تكون القراءة الصحيحة امامه فان هذه القواعد تسقط من تلقاء ذاتها . اما اذا كتبنا العربية المحكية المشتركة بحرف عربي فانها ستظل عرضـــة لقراءات عديدة ولآراء مختلفة . خذ مثلا لفظ « كتاب » فان الزحلاوي يقول Ktêb والدرزي Ktab وابن الكورة Ktôb وآخرون يلفظونها بشكـــل آخر . ولكن اذا ضبطناها بالحرف اللاتيني هكذا Kitàb فاننا نكون قد ضبطناها مرة واحدة لجميع الناس وفرضنا عليهم هذا اللفظ لا غيره .

ثم هناك مشكلة خطيرة تحلها لنا الكتابة اللاتينية ، ونشير الى قضية الحركات. فانفي العربيةالفصحى ٣ حركات قصيرة وهي : َ ُ ِ وطويلة اذا عقبها الف او واو او ياء . ولكن ليس لدينا حركة للاشمام والاماله والحركة المختلسة او ل ô o ey ê e وغيرها من الحركات التي هي من صلب اللغة .

واعتبر ايضا قضية الاقتباس من اللغات الاجنبية، فان هناك كلمات واسماء عديدة مقتبسة عن الغات الاجنبية ومكتوبة بحرف عربي ، وما لا شك فيه ان هذه الكلمات تُقرأ على اشكال مختلفة . خذ مثلا هـذه الكلمات التي اقتبسناها عى الغرب .

Carbon ; automatic , radio , television

فاننا نكتبها هكذا : كربون اوتوماتيك راديو تلفزيون ، ولكن كيف نلفظها ؟ ستقول انا اعرف كيف يجب ان تلفظ لانني اعرفها في اللغات الغربية . ولكن ما قولك فيمن لا يعرف لفظها . فان لفظة كربون يمكن ان يُتلفظ بها على اشكال مختلفة : Curbawn, Carabawan, carbawn, carboon, caraboon الخ . اما اذا كتبت هذه المقتبسات بالحرف اللاتيني فاننا نشترك مع امم الارض في لفظها كما يجب ان تُلفظ . ولا يفوتنك ان هذه الالفاظ اصبحت من صلب العربية شئنا ام ابينا . اذن أليس من الضروري ان نتعلم لفظها وكتابتها ؟

اذكر صديقا لي في العراق كان ، عند قراءته الجريدة ، يلفظ اسم Churchill « تَشَرْشَل » اي انه كان يعطيه وزنا عربيا « تَفَعْلَل » . وهذا طبيعي . ولكنه لم يجد لاسم Roosevelt وزنا عربيا فكان يقول رُوزفلِت" Roozflit . ان قضية الاقتباس من اللغات الاجنبية مسألة لغوية هامة. فاننا نعيش في زمن لا غِنى لنا فيه عن اقتباس المصطلحات الغربية في مختلف العلوم والفنون . فان العربية فقيرة جدا في هذه الحقول ، وليس كما يقول البستاني في محيطه ، عند كلامه عن العربية « ... واذا قيس بها غيرها كانت كالبحر وهو كالجدول [1] . » لغتنا العربية جدول صغير جدا اذا ما قيست باللغات الغربية الراقية ، ولا اعتبارَ للمهمل

---

(١) محيط المحيط الجزء الاول ص. ٨٤٧ .

الممات في معاجمنا . ولن تجد المجامع العربية لهذه المصطلحات مقابلا عربيا ، ولن تستطيع ان تجد لها في لغتنا ما يقرب من معناها المحدد . لذلك سنجد انفسنا مضطرين الى اقتباسها بشكلها الغربي .

عندما تُكتَب العربية باللاتينية يصبح دخول هذه المقتبسات امرا طبيعيا . الحرف اللاتيني يضبط اللغة مرة واحدة للجميع ، ويفتح الباب على مصراعيه للاقتباس وتصبح هذه المقتبسات جزءا من اللغة وبشكل في الكتابة يجعلها اصيلة لا غريبة نابية .

(ج) ان تضبط احكامها الصرفية والنحوية والصوتية

وقد يبدو في اقتراحنا ان تضبط احكام هذه اللهجة شيء من الغرابة والتناقض . ووجه الغرابة هو ان اكثر الناس قد اعتادوا ان يقرنوا قواعد الصرف والنحو والبيان باللغة العربية الفصحى . ولكن هل للعامية قواعد صرف ونحو وبيان ؟ ليس للعامية صرف ونحو في نظر الناس ! ووجه آخر من وجوه التناقض في اقتراحنا هو اننا حملنا في هذا الكتاب على القواعد ، وفي كتابنا « تبسيط قواعد العربية » هاجمنا القواعد مهاجمة لا هوادة فيها وانتقدنا طرق تدريسها . فلا غرو ان بدا في اقتراحنا ضبط احكام اللهجة المحكية شيء من الغرابة والتناقض .

اما ان اللهجة العامية لا قواعد لها ولا ضوابط فوَهْم فاضح . لكل

لغة او لهجة احكامها وقواعدها في الافراد وفي التركيب . عدد الضمائر ، تصريف الفعل ماضيا ومضارعا وامرا مع الضمائر ، اسم الفاعل والمفعول ، بناء المصدر ، قوانين الصفة والظرف ، جمع الاسماء والصفات ، التذكير والتأنيث ، قواعد العدد ، الجملة وتركيبها ، وغيرها كثير مما يجب ان يضبط . اللغة للمجتمع وليست للفرد ، وبما انها ملك المجتمع فلا يحق لنا ان نتركها نهبا او عرضة للذوق الفردي او للشذوذ الفردي .

اما اننا ناقمون على القواعد فلسببين . اولا ان وضع قواعد واحكام لاية لغة كانت اشبه بسيف ذي حدين . فمن جهة نجد ان وضع الاحكام والقوانين يحفظ اللغة في نطاق النورم ، ومن جهة ثانية نجدان وضع الاحكام يقيد اللغة ويحد من نشاطها ، او لنقل ، انه يقف في مجراها الطبيعي ويسد عليها الطريق كما حدث للغة العربية الفصحى . فان وضع الاحكام لها اوقف عمل النواميس اللغوية في نقطة معينة في المكان والزمان . ثانيا ان سبب نقمتنا على القواعد والاحكام مرده الى طريقة تعليم القواعد والاحكام اكثر منه الى وجود قواعد واحكام . لاننا نعرف ان لكل لغة قواعد واحكاما يجب على المتعلم ان يتعلمها ، ولكن نريد قواعد واحكاماً مجردة عن الفلسفة .

اشرنا سابقا الى حرص لغويي العرب على وضع قواعد عامة

شاملة ، الى حرصهم على معرفة السبب . وكان من جرّاء هذا الحرص ان اوقعوا انفسهم في ورطة ايجاد قواعد فرعية ـ لان اللغة لا تخضع لقواعد رياضية ـ وفي ورطة ايجاد العامل . بينما نجد الاتجاه الحديث يسير نحو تعليم القواعد باسلوب تقريري وصفي deseriptive دون اللجوء الى السببية (العامل والعلة والتقدير والاضمار)

واما ان يكون للهجة التي نقترح الاعتراف بها قواعد واحكام فامر لا مناص منه . انما نرجو ان تضبط احكامها الصوتية Phonology وقواعد الاشتقاق etymology واحكام التركيب Syntax بطريقة استقرائية ـ كما جرى عند وضع احكام اللغة العربية الفصحى ـ وعلى اسلوب تقريري descriptive ونرجو ان يكون تعليمها للاجيال الطالعة على اساليب حديثة تتمشى وعلم التربية وعلم البسيكولوجيا لا على الاساليب البالية ، اساليب الكوفة والبصرة في القرون المتوسطة .

(د) ان يقبل بها العرب

وكان حريا بنا ان نضع هذا الشرط الاساسي في مقدمة الشروط التي يجب ان تتوفر لكي ترتفع اللهجة العربية المشتركة الى مصاف اللغات الادبية . لانهم اذا لم يقبلوا بها فانها ستظل لهجة من اللهجات العديدة ، وستظل المشكلة اللغوية قائمة .

ولكن قبول العرب بها يتوقف علي :

(ا) مبلغ ادراكهم خطورة المشكلة اللغوية

(ب) قيمة الادب الذي سيُكتَب بهذه اللهجة وجماله

فانهم اذا ادركوا حقا ان هناك مشكلة لغوية لها اثرها في الفكر والتربية والادب ، واذا شعروا ان هذا الادب الجديد يستأنف الى عقولهم وقلوبهم فاننا لا نشك في ان هذه اللهجة المحكية المشتركة تفرض نفسها على الناس .

ونحن لا ننكر ان الامر يحتاج ايضا الى عزم وارادة . فان اللغة لصيقة بالدين والادب ، والدين والادب رابطة روحية قوية . يشعر عامة العرب اليوم ان اي مساس باللغة قد يترك اثر مباشرا في الرابطة القومية ، فلننظر في ماذا سيحل بالقديم ، وما يترتب على ذلك من نتائج .

ماذا يحل بالقديم

وهذا اخطر ما تجابهه امة تحاول ان تُحِلّ لغتها العامية محل لغتها الفصحى . وقد جابه غيرنا هذا السؤال . ولكن الحياة اجابت عنه : ما له قيمة بقائية يبقى ، وما هو حري بالخلود يخلد ، وما فيه فكر وعاطفة يعيش ما دام هناك فكر وعاطفة . ولك ان تعكس فتقول ما ليس له قيمة يموت . هذه سنة الحياة .

نحن نعلم ان الانسان الكامل لا يعيش في حاضره او في مستقبله ، بل يعيش ايضا في ماضيه. الحياة المليئة هي التي تشمل الماضي ، وتتطلع الى المستقبل . ونحن نعلم ان هذا الماضي يعيش في عادات الامة وفي اساطيرها وخرافاتها واغانيها وموسيقاها ، وفي شعرها وفي فنها . ونعلم ان الماضي رابطة روحية ، ولذا تحرص الامم علي الا تنقطع الصلة بين حاضرها وماضيها . ولكن ، الى جانب اللغة والادب ، هناك روابط اجتماعية اخرى تشد افراد الامة الواحدة بعضهم الي بعض . هناك الاقتصاد والاجتماع والمنافع، هناك الاهداف والمثل والشعور المشترك،

هناك العلم والفن والفلسفة ، هناك الارض التي يعيشون عليها والبقعة التي يقدسونها حرما ، وهناك الدولة التي تعيش بينما الأفراد يموتون . جميع هذه روابط تربط الناس بعضهم الى بعض ، ولو كانت اللغـــة الرابطة الوحيدة لكانت الشعوب التي تتكلم الانكليزية دولة واحـــدة ولكانت الدول التي تتكلم الالمانية دولة واحدة . وفضلا عن هـــذا فان اللهجة العربية المشتركة الموحـــدة لن تكون عاملا للتفكك بل نعتقد مخلصين انها ستكون اداة توحيد ، وستكون عاملا في تقوية الروابط لا سببا في فصمها .

ولكن للناس ان يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟ ومـــاذا سيحل بالادب القديم؟ وجوابنا هو ان القرآن الكريم سيخلد سيبقى على ماهو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب . ورغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب المقدسة فانها حافظت عـــلى روعتها وجلالها ومقامها الديني . هاك لغة التوراة الانكليزية المعروفة بترجمة الملك جايمس ، فانها عـــلى قدمها تعتبر في الانكليزية ، الى جانب مقامها الديني ، قطعة ادبية رائعة لها اثر بعيـــد الغور في الادب الانكليزي على مـــدى الاجيال . ولكنها (لغة التوراة الانكليزية) لغة تخالف لغة الناس . وقل مثل هذا في لغة شكسبير فانها حافظت على كيانها ومقامها . وفي لندن اليوم مسرح مشهور يعرف ب Old Vic لا يمثل فيه الا روايات شكسبير بلغتها القديمة وبشعرها

القديم وبتعابيرها القديمة . وانك اذا قست هذه اللغة بلغة جرائد لندن ، او اذا قستها بلغة الشارع في اكسفورد او كمبريدج وجدت فروقا شاسعة . وها هي الكنيسة الكاثوليكية فانها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية ، ولا يكون القداس الا باللغة اللاتينية . وقل مثل هذا في الكنيسة الارثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية ، والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية ، والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بلغة الجعز .

ان الفارق بين هذه الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الاسلام عظيم جدا وذلك لان العامية المهذبة المحكيةلا تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية او الاغريقية عن العربية او اللاتينية عن الافرنسية. فلن تكون لغة القرآن الكريم غريبة على افهام الناس، وسيظل الناس يتعلمونه ويحفظونه غيبا ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم. وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركا، ويشعرون وهم يرتلونه انهم يرفعون قلوبهم الى الله بالصلاة . فالحياة الروحية تستمد غذاءها من الشعور الداخلي الذي يدفعها للاتصال بالسماء . هذا فيما يتعلق بالمستقبل القريب . ولكن ماذا سيحدث في المستقبل البعيد ، بعد مئات من السنين ؟ هنا ندخل في نطاق الحدس والتخمين . ولكن

يتراءى لي ان في ذلك الزمن البعيد لن تكون الحياة الروحية وقفا على الكلمة ، ولفظ الكلمة ، وشكل كتابة الكلمة ، بل تكون الروح الانسانية قد انعتقت من الحرفية وخرجت الى آفاق روحية مستمدة من روح الدين والفلسفة والفن والموسيقى . سيكون التوكيد على الحياة الفضلى ، علي الحياة القائمة علي حسن المعاملة ، على المحبة ، علي الاخاء . عندها يكون للناس الحرية ان ينظروا الى الدين من خلال نظاراتهم لا من خلال نظاراتنا نحن . ان اغرب ما في طبع الانسان من الانانية والحرص هو شعوره انه خالد لن يموت ، وشعوره بان افكاره وعقائده ومثله واسلوبه في العيش يجب ان تخلد وان تفرض على ذريته بالشكل الذي يريده ويألفه الى ما شاء الله . ولكنه الوهم بعينه . نحن زائلون والحياة للاجيال القادمة ، وليس لنا ان نفرض عليهم ، وان فرضنا فانهم لن يعيروا افكارنا اقل انتباه . وهذا ما نلحظه بين جيل وجيل . الا تحرص ان تفرض على ابنك عقائدك وعاداتك ومقاييسك وذوقك ونظرك الى الحياة ؟ ولكن كيف ينظر ابنك الى هذه العقائد والمقاييس ؟ قد قد يسايرك بعض الطريق ، ولكنه في قرارة نفسة يضحك من حرصك هذا ويسير في طريقه الخاص . وهذا هو سبب كل خصومة بين القديم والحديث .

ماذا سيحل بالادب القديم ؟ وجوابنا عن هذا السؤال هو ما قلناه

في بدء الفصل : ما له قيمة بقائية يبقى ، وما هو حري بالخلود يخلد . الروائع ستبقى ، ستبقى لما فيها من فكر وروح . ولكن اعترافنا بالعامية لغة ادبية مكتوبة بالحرف اللاتيني سيكون فرصة مؤاتية لاهمال ما يجب اهماله من الادب القديم ، وفرصة للحفاظ على ما يجب ان يحافظ عليه .

في هذا القول من الجرأة ما سيثير حفيظة المتزمتين . ولكننا نؤكد للقارىء ان جوابنا هذا ليس اعتباطا ، انما هو رأي مبني على اختبارنا الشخصي . والاراء التي سنصارح الناس بها لا تمثل رأي جماعة ولا مدرسة، وليست تكرارا لقول زيد او عمرو من الناس ، انما هي افكارنا الخاصة التي نعتنقها اعتناق من درس ولاحظ ، هي نتيجة اختبار تلميذ ومدرس ، تلميذ درس الادب ومدرّس درّسه .

ماذا سيحل بالادب القديم ؟ قبل الاجابة عن هذا السؤال احب ان اثير قضيتين : ما هو الادب ؟ وما اثر الأدب العربي في الناشئة العربية ؟

ما هو الادب؟ لا اظن ان الناس اختلفوا في تحديد لفظة اختلافهم في تحديد الادب . ولن يهمنا ان نؤرخ او ان نخطىء ، ولن يهمنا ان ندخل في بحث ادبي فلسفي ، انما يهمنا جدا ان نقول ان الادب ، مهما اختلفوا في تحديده ، مخثّر الأختبار الانساني المصوغ بقالب مؤثر . والادب من الفنون الجميلة كالموسيقى والغناء والتصوير والرقص، الغاية

القصوى منه البهجة والمتعة العقلية لا الوعظ ولا الارشاد ولا الفلسفة ولا التاريخ . لهذه المواضيع ادبها الخاص. الادب في نظرنا متعة وبهجة، ولهذه المتعة اثر عميق في الروح الانسانية ، في تليينها ، في امتدادها ، في اغنائها .

لا ننكر انه قد يكون للادب نفع آخر. فقد يكون في الادب مادة لكتابة التاريخ ، وقد درس طه حسين المتنبي وخرج بدراسة شيقة لشخصية المتنبي وللبيئة التي عاش فيها . وقد يدرس آخر الادب ليفهم عقلية الشعب الذي انتج ذلك الادب . وقد يتضمن الادب حكما ومواعظ وخيالات جميلة ، ولكننا نصرّ على ان الغاية القصوى للادب هي المتعة والبهجة . فانني قد اقرأ كتاب « البؤساء » مثلا واتعرف الى العصر الذي عاش فيه ابطال القصة ، وقد اتعرف الى حياة العصر وما اليها من اجتماع واقتصاد وسياسة ، وفي هذا شيء من النفع . لكن قراءة « البؤساء » يجب ان تكون اولا متعة وبهجة وطرافة عقلية . الادب للانطلاق من العالم المادي الواقعي الى عالم بعيد نعايش اهله ، ونتحسس احاسيسهم ، ونحلم احلامهم ، ونختبر اختباراتهم ونحن جالسون على كرسي مريح الى جانب النار شتاء ، او على شرفة تطل على واد جميل صيفا . ولهذا الطيران الى اجواء بعيدة عبقة اثر في حياتنا الروحية . الادب اغناء للروح وامتداد للخيال وارتفاع الى السماء . الادب ملين للخشن فينا ، مثقّفٌ للجاف فينا . والادب عامل فعّال في

انسانيتنا . وعندما اقرأ مقالاً فيه علاجات اقتصادية واجتماعية وسياسية لمداواة امراضنا ، نحن العرب ، اشعر بان دواء ناجعا قد اهمل: الادب. وقد تعجب لقولي هذا ، ولكني جـــاد في قولي ان لا شيء يلين الخشن فينا - والخشن فينا كثير - كالادب ، الذي هو مختز اختبارات البشرية المصوغة بقالب جميل مؤثر في النفس .

لا شك ان في جملة الادب العربي ومضات ينطبق عليها تحديد الادب كما اوردناه . ولكن الادب العربي بجملته فقير في الافكار ، محدود الخيال ، اقرب الى الصناعة اللغوية منه الى الفن ، ذاتي تنقصه الصفة الانسانية العامة . فلا يمكن ان يكون له الاثر المنشود في نفوس الناشئة العربية عام ١٩٥٥ عندما اصبح الادب العالمي مشاعـــا ، تراثا عالميا تنشره السينما ويعممه المسرح وتبعث به الصحيفة الى زوايا العالم باسره.

ان عجز الادب العربي عن النفاذ الى نفوس الناشئة راجع الى عاملين : مادة الادب العربي وطريقة تدريسه . ولن نبحث العامل الثاني لاننا عالجنا هذا الموضوع سابقا في مقال نشرته مجلة الابحاث وعنوانه « البيان والادب من مشاكل التدريس [1] . » حسبنا الآن ان نقول انها دراسة تاريخية جافة تنفر من الادب عوضا عن ان تحببه الى النفوس ،

---

(١) مجلة الابحاث السنة الخامسة ، الجزء الثالث ايلول ١٩٥٢ ص ٣٣١ - ٣٥٢ ،

وتفقد الخيال عوضا عن ان تغنيه . اما فيما يتعلق بأثر هذا الادب ذاته في نفوس الناس فاننا سندلل على عجزه في تأدية الرسالة بذكر انطباعات تلامذتي عند درسنا :

(١) المختارات السائرة
(٢) رسالة الغفران
(٣) شعر المتنبي

وقد اخترنا هذه المواد لانها تمثل احسن ما في الادب العربي القديم، وقد اخترنا ذكر انطباعات الطلبة الجامعيين لانهم يمثلون الناشئة العربية الواعية خير تمثيل . وطلبة الجامعة الاميركية يمثلون مختلف الاقطار العربية ومختلف البيئات والنزعات .

(١) المختارات السائرة [١]

كان تدريس العربية في صف الفرشمن (السنة الجامعية الاولى) الى عهد قريب يتناول مراجعة درس الادب العربي دراسة جامعية شاملة مع مقدمة وافية في الادب وتذوقه والنقد واصوله . وقد اختار الاستاذ انيس المقدسي ، استاذ الآداب العربية في الجامعة الاميركية سابقا ، لهذا

---

(١) وهي مجموعة شعر ونثر جمعها الاستاذ انيس المقدسي لتكون مادة لمراجعة عامة للأدب العربي في السنة الجامعية الاولى . وقد قدم لها بمقدمة تبحث الادب وتذوقه . المطبعة الاميركية في بيروت .

الدرس جملة صالحة مختارة تمثل الادب العربي القديم والحديث في شعره ونثره . وقد بوّب هذه المختارات حسب الفنون الادبية : المدح ، الفخر ، الغناء ، الرثاء ، القصة ... الخ

وكنت اطلب الى التلاميذ ان يبدوا رأيهم في القطعة المقرؤة . وكنت افهمهم انهم قد اصبحوا رجالا جامعيين وليسوا احداثا يعطون المعطيات دون نقاش او ابداء رأي. لهم الان ان يناقشوا ، ولهم ان يبدوا الرأي صريحا . وانت اذا اكتسبت ثقة طلابك ، وان هم وثقوا من ان مخالفتهم اياك في الرأي لا تضر بالعلامة النهائية فانهم يشرحون لك صدورهم ويكاشفونك بعميق مخبآتها .

كنت اطلب اليهم ايضا ان يصارحوني القول كتابة (كي لا تزعجهم المشافهة) في اثر هذا الدرس في نفوسهم ، واذا كان هذا الادب العربي الذي اعطوا منه نبذة صالحة ينطبق على مفهوم الادب عامة وعناصره كما افهموه في بدء السنة ، من مقدمة الكتاب ، وكما عرفوه عند درسهم الادب الانكليزي او الافرنسي . كنت اطلب اليهم هذا لانني كنت اشعر منذ زمن بعيد ان ليس لهذا الادب من اثر في نفوس الطلاب . ولكني لم اجرؤ على التصريح بهذا خوفا من ان اكون واهما او متحاملا او عاجزا عن النفاذ الى نفوس الناس . فدأبت على المكاشفة والملاحظة وجمع الانطباعات التي كنت اشعر انها صادقة صادرة عن

اخلاص. كنت اشعر ان اكثر الطلبة في صفوف الادب العربي يرددون على اساتذتهم ما طلبوا اليهم ترديده ، ولكن اذا خلوا الى ذواتهم سخروا من الاساتذة ، وسخروا مما سميناه لهم ادبا .

وقد تكون مفاجأة غير سارة اذا قلنا لك ان من كتاب ضخم ككتاب المختارات السائرة لم يرق لاكثر التلامذة سوى قطع نثرية وشعرية لا يتعدى عددها اصابع اليد الواحدة . وقد احصيت عدة مئات من الاجوبة خلال سنوات ثلاث ووجدت ان القطع التي اعجبت التلاميذ والتي كان هناك شبه اجماع على جودة الفن فيها هي :

التمثال : لمحمود طه

والطيارة : لفوزي المعلوف

والبحيرة : لنقولا فياض (هي في الاصل افرنسية للامارتين)

وقطعة نثرية لجبران (السعادة) وبضعة ابيات للمتنبي في قصيدته « عيد باية حال .. »

اما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد
يا ساقيي ، اخمر في كوؤسكما ام في كوؤسكما هم وتسهيد
اصخرة انا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد

ولا غرو ان راقت لهم ابيات المتنبي ، فان الشباب الغضّ في مثل

هذه السن يميل الى مثل هذا الحزن والى مثل هذا التشاؤم . والباقي ؟
« يا استاذ لحكيلك الدغري ما فيها شيء. وليش المقدسي بسمّيها
مختارات سائرة ما بعرف .... »

وهؤلاء شبان مخلصون لذواتهم ولاوطانهم ، صادقون في وطنيتهم
واقعيون . كثيرون منهم درسوا الادب الفرنسي او الانكليزي ، وبعضهم
قرأ نماذج صالحة من الادب الغربي ، وها هو المسرح امامهم والسينما
يرتادونها كل اسبوع مرتين ، ويستطيعون ان يقارنوا لانفسهم . لا
نستطيع ان نخدعهم ولا ان نقول لهم الابيض اسود والاسود ابيض .
هؤلاء شبان عيونهم تتطلع الى الامام الى الافق البعيد ، فان الغد لهم
والحياة امامهم ، وادب المختارات السائرة لم يفتح لهم آفاقا ولم يرتفع
بهم ان اجواء . الحياة تضطرب بالمشاكل الفكرية الفلسفية الروحية
الدينية الفنية البسيكولوجية ونهمهم عنيف وعطشهم شديد . ولكن هذا
الادب لم يشبع نهمهم ولم يرو عطشهم . وان كنت في شك فيما اقوله
لك فاختبر لنفسك . سل الناس الذين قرأوا الادب العربي . حاول ان
تعلم الشبان الادب العربي .

(٣) رسالة الغفران

كنا جميعا عشرة ، تسعة واستاذ . وكان الطلبة من طلاب السنتين
الاخيرتين من دراستهم الجامعية . وكانوا يمثلون العراق وسوريا

والاردن ولبنان . وقد اعتمـــدنا في قراءة نص رسالة الغفران الطبعة الجديدة التي حققتها بنت الشاطىء[1] .

طلبت الى التلاميذ ، بعد انقضاء اسبوع كنا نـــدرس فيه المعري ونتعرف الى شخصيته والى عصره والى حكم التاريخ عليه ، ان يبدأوا معي بدراسة النص بكامله دراسة دقيقة . طلبت اليهم ان لا يتأثروا بما قاله زيد ، وان لا يهتموا بالحكم الذي اصدره عمرو ، بل كنت اقول لهم اننا في هذا الصف جماعة من العرب نجيد قراءة العربية كما يجيدها النقاد ، ولنا من المعرفة باصول النقد ما لغيرنا من معرفة ، ونفهم الادب وعناصره كما يفهمه غيرنا ، ولنا من الذوق الادبي ما يعيننا على تذوق الفن فيها . اذن لندرس هذه القطعة غير متأثرين بعامل خارجي ، بل سنُكَوّن لانفسنا رأيا في قيمة الرسالة بناء على درسنا لها .

هل قرأت رسالة الغفران ؟ ان لم تكن من الذين قرأوها فانـــك ستجد شيئا من الصعوبة في تصديق ماسنقوله لك عن انطباعات التلاميذ وما قالوه لنا في الصف وبعد الانتهاء من هذا الدرس .

شعر هؤلاء الطلبة اولا ان مفهوم الادب عندهم، اوالادب كما حدد لهم من انه مختز الاختبارات البشرية المصوغة بقالب جميل مؤثر ،

---

(١) رسالة الغفران ، تحقيق وشرح بنت الشاطىء ، دار المعارف مصر ١٩٥٠ .

ومن انه متعة وبهجة ، ومن انه انطلاق الى عالم آخر ، لا ينطبق على الرسالة بجملتها . نعم ، هناك اقسام من الرسالة قليلة الصفحات ممتعة طريفة : دخول ابن القارح الجنة ، بعض المواقف مع الشعراء ، وصف الجنة الحسي ، انهارها وخمائلها وحورها وولدانها وشهي طعاما واطايب خمرها الذي لا يسكر . عندما كنا نقرأ هذه الاجزاء كنا نشعر اننا في اجواء لطيفة هي الاجواء التي يخلقها الادب . ولكن رغم هذه الطرافة فان الرسالة لم تثر خيالهم ولم تلهب شعورهم ولم تمس حياتهم . شعروا ان هذا النوع من الادب ضيق الافاق فهو يمثل شعور رجل اعمى ساخط ناقم مشكك يهزأ بخرافات الناس ويضحك من بلاهتهم ويسخر من معتقداتهم الصبيانية التي تصور لهم الجنة حالة حسية (عوضا عن ان تكون حالة روحية) لا يختلف فيها عيش اهل النعيم عن عيش اهل الفانية العاجلة وهم راتعون في قصورهم . لم تثر الرسالة قضية انسانية عامة ، فانها تقصر في رسالتها عن الرسالة التي تجدها في الادب العالمي الذي يروق للناس في كل مكان وفي كل زمان .

ثانيا : لم يفهم الطلبة لغة الرسالة . فان المعري صَعَقنا جميعا ، كما لا شك انه صعق ابن القارح الذي كُتِبت له الرسالة ، غير ان ابن القارح شيخ اديب اقرب عهدا الى لغة المعري ، واعرف بغريبها منا نحن الذين تفصلنا عنها مئات السنين . ومع هذا فان ابن القارح قد صُعق وصُعقْنا نحن معه !

يبدأ المعري بمقدمة فيها دعاء بالخير لابن القارح ويذكر في جملة ما يذكره (ص٢) « .... ان في مسكني حماطة ما كانت قط افانية ... » ثم يسترسل في تفسير معنى الحماطة والافانية حتى اننا خرجنا جميعا ولا نفقه للفظتين من معنى لان الحياة نبذتهما. وما كدنا ننتهي من هذا الاسترسال المرهق حتى فاجأنا ببيتين من الشعر ذكرهما عرضا عند كلامه عن نهر العسل في الجنة.

والبيتان لشاعر قديم النمر بن تولب:

الم بصحبتي وهم هجوع	خيال طارق من ام حصن
لهاماتشتهي عسلا مصفّى	اذا شاءت وحوارى بسمن

ثم ان ابا العلاء، وهو يحاول ان يظهر مقدرته اللغوية ليصعق ابن القارح، يفترض افتراضا فيقول لو ان النمر بن تولب قال في البيت الاول « امّ جزء » بدلا من « امّ حصن » فماذا تكون القافية في البيت الثاني؟ اي ما هي الكلمة التي تتلاءم مع « جزء »؟ فيجيب ابو العلاء بان على الشاعر ان يقول في البيت الثاني « حوارى بكشء » ثم يفسر كشأ ويستطرد ويستشهد بكلمات اعقد من « كشء » ثم يتابع ابو العلاء فيقول: ويجوز ان يقال « حوارى بوزء » ويفسر وزأ بما هو اعقد من وزأ. ويقال « حوارى بنسء » « وحوارى بلزء » ويفسر جميع هذه الالفاظ المماثلة بالاستشهاد بشعر قديم - وقد تكون الكلمة المفسرة

اصلا موضوعة والاستشهاد موضوعا منتحلا ، لا ادري ، ولا يهمني ان ادري . ولو ان ابا العلاء وقف هنا لهان الامر ، ولطلبنا الى التلاميذ ان يصبروا لان الله يحب الصابرين . ولكنه يعود فيفترض ان النمر بن تولب قال « ام حرب » بدلا من « ام حصن » فماذا تكون القافية في البيت الثاني ؟ ثم يتقدم لاظهار براعته فيقترح كلمات عدة تصلح ان تكون قافية ملائمة . وكل كلمة لها تفسير معقد . ثم يفترض ان القافية في الاول ت ث ج ح خ د ذ ر ز ... الى ي فماذا تكون القافية في البيت الثاني ؟

قد تظن اننا نبالغ او نهول ، ولكن الامر ايسر . اذهب انت بنفسك واقرأ الرسالة (تحقيق بنت الشاطىء ص ٣٢ ـ ٤٢) وقل لنا بصراحة كيف تشعر . اما التلاميذ فقد قالوا لنا بصراحة : سخافة لغوية، العاب بهلوانية ، ومباهاة في معرفة الغريب . فقد قال المعري ان العرب لم ينطقوا بكلمة لا يعرفها . وها هو يبرهن على صحة دعواه .

ثالثا : لم يشعر الطلبة ان الرسالة ، باستثناء اجزاء قليلة المعنا اليها آنفا ، تدخل في نطاق الادب كما يفهمونه ، او كما أُفهِموه ، بل شعروا انها اقرب الى النقد اللغوي والتاريخ[1] . وقد لا نكون بعيدين

---

(١) وقد اوحي النقد اللغوي في الرسالة الى اديب سوري ، الدكتور امجد الطرابلسي ان يكتب كتابا عنوانه « النقد واللغة في رسالة الغفران » وهو كتاب ممتاز من حيث جودة البحث ودقة الاستنتاج .

عن الحقيقة اذا زعمنا بان الغرض من الرسالة هو النقد والتاريخ . فان ابا العلاء يدخل ابن القارح الجنة ليلتقي بالشعراء والادباء لغرض معين: اثارة قضية لغوية او نقدية او تاريخية او دينية - ولا ضير في هـذا الاسلوب لولا جفاف الموضوع ووعورته . التاريخ ، والنقد ، والدين ، وتحقيق بيت من الشعر اذا كان منتحلا او غير منتحل، جميع هـذه بحوث لها مقامها ولكنها لا تقع في نطاق الادب . وفضلا عن هذا فان اكثر الطلبة لا يستطيعون مجاراة ابي العلاء في بحوثه اللغوية والنقدية .

ان كنت في شك فيما نقوله ، او اذا كنت ممن يشك في حسن فهم الطلبة وفهم الاستاذ حاول ان تقرأ الرسالة انت كما قرأناهـا نحن وابعث الينا بانطباعاتك .

(٣) الشاعر المتنبي : كنا اثني عشر ، احد عشر طالبا والاستاذ . وقد عايشنا المتنبي في شعره فصلا مدرسيا . ولكن المتنبي يحتاج الى اكثر من فصل مدرسي . فانه شغل الناس قدما ، ولا يزال يشغلهم الى يومنا هذا . والمتنبي ، بالنسبة الى مقاييس الشعر العربي ، شاعر كبير ويمثل الشعر والشعراء . فحكمنا عليه وعلى شعره لا يبعد ان يكون حكما عاما على الشعر والشعراء .

بعد انقضاء ايام قضيناها في التعرف الى المتنبي والى حياته والى عصره المضطرب والى الحكام والسلاطين الذين عاش في كنفهم ، قررنا

ان تكون دراستنا له دراستنا لرسالة الغفران . اي اردنا ان نكوّن لذواتنا رأيا في المتنبي وشعره وفنه مبنيا علي دراستنا نحن له لا بنا على ما قاله زيد او عمرو . ولكننا لم نغفل عن وضع مكتبة صغيرة عن المتنبي في متناول الطلبة ، وكثيرون هم الذين درسوا المتنبي وكثيرون هم الذين اجادوا الدرس والنقد .

اعجب الطلبة ببعض قصائد المتنبي ، فان لها نغما موسيقيا وفيها براعة ، وفيها فن ، وفي كثير من ابياتها يحلق المتنبي في اجواء رفيعة . ولكنهم في قراءتهم الديوان كانوا يشعرون ، كما عبروا عن شعورهم لي في الرسالة الفصلية التي يطلب اليهم ان يكتبوها ، انهم كانوا الى جو التاريخ اقرب مما كانوا الى اجواء الادب . فالمتنبي رجل منكمش على ذاته ، شعره صورة ذاته ، قصائده صورة طمعه وحرصه ، حياته كلها صراع مع ذاته ، حله وترحاله صورة نفسه الطامحة ، تقلبه في حياته السياسية صورة رغبته في الحصول علي القوة . فديوانه من هذه الناحية دراسة ممتعة للشخصية التي يمثلها المتنبي، والمتنبي يمثل كثيرين في جميع العصور . ولكن ديوان المتنبي لم يثر قضايا الحياة التي يود هؤلاء الطلبة ان تثار . في مسايرتهم المتنبي فصلا مدرسيا كاملا لم يلقوه مرة ينطلق من دائرة ذاته الضيقة الى الذات العظمى الرحبة ، الذات الانسانية ، ليصوّرها لنا صورة رائعة . او الى الطبيعة الجميلة لينظمها لنا شعرا خالدا . لم تلهب حياة المتنبي شعورهم ولم يغذّ خيالهم . عظمته في لغته ،

في فخفخة الالفاظ ، وفي قعقعة القوافي . تشامخه كبرياء زائفة وادعاءات كاذبة . ثورته متنفس عن حقد . واين هذا من العظمة الحقيقيـة التي تتجسد ثورة على الظلم والطغيان وتكبيل الفكر . يسألني احـدهم : « هل حارب في سبيل مبدأ . هل حارب الشعوبية ، هل انتصر لضعيف، هل اغاث ملهوفا ؟ وهل احدث ثورة فكرية ام اجتماعية ام سياسية ؟ هؤلاء الشبان يريـدون في الادب بهجة ومتعة وفكرة تلهب . لم يجدوها في المتنبي .

قـد تقول : ولكن هؤلاء الطلبة لم يفهموا المتنبي ، او لا يعرف استاذهم كيف يفهمهم المتنبي . او قد تقول ان ذوقنا غريب ، وما شاكل من اعذار قد تخطر ببالك لتدافع عن المتنبي . ولكننا جهدنا ، طلبـة واستاذا ، ان نعصر الديوان ، وقـد عصرناه طويلا ، وحاولنا ان نُري انفسنا ما ليس هناك، وان نسمِع آذاننا ما لا يُسمع ، ولكننا لم نتمالك عن الشعور بان المتنبي عجز عن ان يكون لنا بهجة ومتعة . شعر المتنبي كشعر غيره من الشعراء ، مصدر من مصادر التاريخ ، ونتيجة حياة ضيقة محدودة مشحونة بالصراع والحرص على الدنيا . ولكن الشعر ليس تاريخا . الشعر متعة ، والشعر غناء .

●

ماذا سيحل بهذا الادب القديم ؟ قد يبقى القسم الاكبر منه سجلا

تاريخيا للاجيال التالية ، والجزء القليل منه سيخلد على انه ادب . ففي رسالة الغفران ، مثلا فصول قليلة يمكن جمعها في وريقات قليلة حرية بالخلود . هذه ستبقى ، واما تعليقه على شعر النمر بن تولب ، حيث اراد ان يصعق ابن القارح بمعرفته الغريب في اللغة - وصعقنا نحن الذين نقرأ الرسالة - فيجب حتما ان يموت. وكلما قرب اجل هذا النوع من الادب قرب زمن انعتاق العقل العربي وطيرانه الى اجواء الادب الصحيح ، ادب الانسانية .

خاتمة

كان العرب ذات يوم اقوياء ، وكانت لهم يد في بناء الحضارة العالمية في العصور المتوسطة . كانوا اقوياء لانهم ايقنوا في قرارة نفوسهم ان عندهم رسالة ، وصاحب الرسالة ملهب الخيال، ودقيق الشعور ، صادق العزم ، قوي الارادة. والواثق بنفسه جبار يأخذ ويعطي ، يقتبس ويجتهد، يحور ويغير، يؤمن ويشك ، يلجأ الى العقل كما يلجأ الى القلب.

ولكن ذات يوم افاق العرب واذا هم ضعفاء . فقدوا السلطان فافقدهم الثقة بالنفس ، واضعف فيهم دوافع الحياة . وخبا نور الرسالة فانكمشوا على ذواتهم وارتضوا العيش على هامش الحياة . وتلفتوا فلم يجدوا في ايديهم من بقايا الماضي المجيد سوى اللغة والدين موضوعا

للنشاط العقلي . فـــلا علم ولا فلسفة ، ولا نحت ، ولا تصوير ، ولا موسيقى ، ولا غناء ، ولا رقص ، ولا تمثيل ، ولا بهجة في الحياة ، ولا طرافة في العيش . فناموا وطال السبات . ولولا دلائل الحياة عند فئة انحصر نشاطها العقلي في علوم اللغة والدين لظن الناس ان الحيـــاة العقلية قد انعدمت عند العرب. وقد جهدت هذه الفئة في وضع نظريات في الاعجاز والصرف والنحو والبيان والبديع والعروض ، وانصرفت فئة اخرى تكرر ما اشتغل فيه السلف الصالـح من علوم الدين ولكن عبثا تفتش عن الجديد ، فلا نظرية جديدة في الفقه ، ولا نظرية جديدة في الفلسفة ، ولا دراسة موضوعية للدين ، انما هو تكرار واكتفاء ذاتي .

ولكن اية امة عظيمة لم تلبد سماءها غيوم قاتمة عارضة ؟ اية امة لم تعصف بها زعازع ؟ اية امة لم تفقد لهب الرسالة ؟ غير ان عظمـــة الانسان الحقيقة تتجلى في النكبات . الانسان انسان اذا استطـــاع ان يشق الحجب ويتلفت الى الافق البعيد ، الى مبعث النور .

اننا ، رغم هذه الانتكاسات في الحقل السياسي ، ورغم هـــذه المصاعب في الحقل الاقتصادي ، ورغم مظاهر الرجعيـة البغيضة التي ترفع رأسها حينا بعد حين في الحقل الاجتمـــاعي والفكري ، نقول ، رغم هذه كلها نرى بوادر انتفاضة مباركـــة . نراها في الشباب القلق المضطرب الذي يريد اللحاق بركب الحضارة السائر قفزا الى الامام -

وهذا الشباب يأبى ان يكون مهيض الجنـــاح ، ويأبى ان يقف في طريقه عائق .

ازدواج اللغة عائق ، والاعراب عائق . واللغة اساس الفكرواساس الحضارة ، ووضع لهجة عربية موحدة سلسة لينةمكتوبة بالحرف اللاتيني يعجّل في تحرير الفكر ، ويسهل نقل المصطلحات والتعابير التي لاغنى عنها ، ويفتح الباب على مصراعيه لنقل الذخائر الادبية الغربيةوالشرقية من شعر وروايات وقصص وعلم وفلسفة واجتماع ، ذخائر يجب على العقل العربي ان يتلقح بها اذا اراد اللحاق بركب الحضارة العالميـة . واما اذا اخترنا السير وحدنا متخلفين متسكعين فليس لنا الا ان نبقي القديم على قدمه .

ولكن الشباب يأبى الابقاء على القديم ، واني ارى بوادر نقمـة صامتة على هذه الفلسفة السلبية . الشباب يريد الأنعتـاق والطيران ، ولهؤلاء كتب الكتاب ولهم اهديه .

« من اجتهد فاصاب فله اجران

ومن اجتهد فاخطأ فله اجر واحد »

فهرست

الجزء الاول

في اللغة

الجزء الثاني

في نشأة اللهجة الادبية والمحكية

الجزء الثالث

حل المشكلة وما يترتب علي الحل من مشاكل

